آخر السلاطين

الطبعة الأولى
1446 هـ / 2025 م

اسـم الكتـــاب: آخر السلاطين
المـــؤلـــــف: منصور الصُويّم
موضوع الكتاب: رواية
عـدد الصفحات: 222 صفحة
عـدد المـــلازم: 13.875 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 20
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـــم الإيـــداع: 2025 / 3156
الترقيم الدولي: 978-977-8796-30-8

القاهرة - جمهورية مصر العربية
01012355714
01152806533
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

آخر السلاطين

"حروب السلطان علي دينار على تخوم مدافن السلاطين"

رواية

تأليف

منصور الصّويِّم

دار البشير

إهداء:

إلى ناصر السيد النور

صديقي

(1)

أرض برنجيَّة الدامية

«إنّ الحدود من الشرق هي ود بندا، ومن الجنوب الأضية التي لا تتبع دارفور والقريبة منها شاكا إلى الجنوب الغربي وحتى حفرة النحاس والكارا وكل الغرب يتبع دارفور. كذلك الأماكن الواقعة شمال وغرب الفاشر وأي أماكن أحتلها من جديد ستكون تابعة للحكومة لأنني واحد من موظفيها. هذه هي الحدود في الحاضر. وأسقط دار حامد التي كانت في السابق تابعة لدارفور إذْ أن رؤساءها يخدمون الحكومة. لقد زادت الحدود وبعد أن تأخذوا ذلك في الاعتبار سأكون ممتناً للأوامر التي عليّ أن أتبعها»

علي دينار إلى الحاكم العام الإنجليزي _ ديسمبر 1899م

... أَزْحفُ متراجعاً على رمل برنجيَّة الدامي، بثقل وألم وانهزام كبيرين. انتهت المعركة سريعاً، استشهد القادة والفرسان، وتفرقت الخيول والجمال في كل اتجاه بمن بقي حياً، قطعت مدافع المكسيم الأوصال وبثت الرعب في النفوس بدويها الهائل، تراجع من نجا من الخيّالة والمشاة، وداهم الموت في مكمنه من داهم، لكنهم قبل ذلك؛ التحموا مع العدو الكافر، تلقوا بصدورهم المشرعة الرصاص وقذف المدافع والرشاشات ثم ماتوا.

كنت أزحفُ يائساً على الأرض الرملية المُدماة، وأحسّ بنَزف الدماء ينزُّ من ساقيّ ويديّ وصدري، من كل شبر في جسدي كنت أحس بالنزف والألم والوجع. أفكر بـ"سيدي علي دينار"، هل يباركني الله بلقياه هذه المرة أيضاً كما في الحروب السابقات؟ أتراني ألحق به مثلما كان بعد هجمة البروجات النهرية وقذف المدافع قبل الأخية واستشهاد الفرسان في سفح جبل كَرَرِي وخراب أُم دُرمان؟ إلى أين اتجهت «سيدي علي»؟ إلى أين تمضي بنا، وتنقذنا وتقوِّينا وتُعظِّمنا هذه المرة؟ «سيدي... علي».. أنا إليك أزحف، إليك أمضي، أجرُّ جسدي المُثخَن بالجراح، ألعقُ دمائي وانهزامي وإليك أسلم روحي، معك «سيدي» أموت، أو نُمِيتُ هؤلاء الغزاة، الإنجليز، الملاعين الكفرة.

في يوم أمس القريب أَسرجتُ لك فرسك اللَّصدا وأمسكت اللِّجَام في انتظارك يا سيدي، انحنيتُ أمامك وأنت تخرج من بوابة قصرك الملوكي مضيئاً كالبدر، الأمراء والمستشارون وقادة الجيش متحلقون من حولك كأنهم كواكب دُرِيَّة تنير لضوئك المُشّع. صعدت بقدميك الطاهرتين على ظهري واعتليت فرسك اللَّصدا، والفرسان أمامك؛ فرسان جيشك العظيم على امتداد البصر؛ يستعدون للاستعراض الحربي الكبير وهتافاتهم وتكبيراتهم تتصاعد مُعَانِقةً عنان السماء، تطغى على دوي النِّحاس ونفخ البروجي المستمر. تتقدم مستعرضاً فرسانك الشجعان وعن يمينك الأمير

رمضـان عـلي وَدْبُرَّة، وعن يسـارك القائد سـليمان عـلي، يتبختران. كان النـصر يبـدو طائعاً منقـاداً بين يديك وأنت تخطب في الفرسـان وتذكرهم بحماية الدين والدفاع عن أرض السلطنة، بمقاتلة الكفرة الإنجليـز، وشرف نيل الشـهادة في سـبيل الله والفـوز بالحور العين والجنـان. كان النـصر يبـدو دانيـاً والقائـدان الأميران سـليمان علي ورمضان علي تحركهما الخيلاء أمامك أسـديْن ضارييْن لا توجد قوة قادرة على صدهما.

أطلـق جنـودك يـا سـيدي في الأمـس القريـب طلقـات بنـادق الرمنتجـون الحماسـية، وهتفـوا هتافـات المُبَايَعَة والصمـود والموت فـداءً، والـولاء المُطلـق لـك إلى الأبد. وفي الأمـس القريـب هذا يا سـيدي، في نهاره القلق المشـحون بحماسـة القتـال واقترابه؛ حلقت في سـماء مدينتك؛ فَاشِر السـلطان، طائرة الشيطان وأسقطت أوراق الفتنـة عـلى أرضهـا الطاهـرة، تدعـو إلى خيانتك وفراقك، سـيدي ومـولاي، لكـن لا أحد اسـتجاب؛ هم رجالك ونسـاؤك وأولادك وجنـدك، أبنـاء الفاشر أبو زكريا، من استشـهدوا فداك صباح اليوم في أرض برنجيَّة[1] الطاهرة يا سيدي ومولاي.

تحت ظل شـجرة سِدْر قصيرة يابسة الأوراق، على أرض برنجيَّة

1 ـ واقعـة برنجيَّـة جـرت أحداثها فـي منطقة برنجيَّة في شـمال دارفـور بين قوات الحكم الثنائي الانجليزي المصري بقيادة هدلسـتون والسـلطان علي دينار عام 1916م.

المُغَتالـة، أم هي أرض فاشر[1] السـلطان المحـاصرة، لم أعد أدرك في أي الأرضين صار جسدي، تمددت تحت ظلها الشحيح، ونزف الدم يغطـي عليه نزف الروح وألمها، ضوء الشـمس مشـتتاً يخترق أوراق وأشـواك السـدرة اليابسـة، ويُخرِبش وجهي، أعلِّق بصري بخيوطه النحيلة المتسللة نحوي، وأعيدني ومضاً إلى زحفي القديم ذاك، عند تلال جبال كرري وسـفح جبل الكَارَه. في الصباح بعد أن هَمَد دوي مدافـع المكسـيم القاتلـة الآتية من جهـة نهر النيل، وبعـد أن خفتت متلاشـية هتافـات وتكبيرات فرسـان رايات جيـش الخليفة عبدالله ود تُورشـين إلى الأبد. في ليلة المَقْتلة الكبرى وقبل أن يؤدي سـيدي عـلي دينار صلاة الفجر برفقة الأمير شـيخ الدين ابن الخليفة عبدالله التعايـشي؛ اختـلى بناظر قبيلة الرِّزيقَات موسـى مادبـو، وأمين بيت الأمانـة قمر الدين عبد الجبار، كشـف أمامهـما ملامح خطته كاملة، والـدروب التـي سيسـلكها الرجـال في طريقهـم لاسـتردَاد عرش السلطنة المغتصب في فاشر السلطان، طمأنهما بأن الجميع بعد الأوبة الظافرة سيكونون إخوة، ولن تعلو قبيلة على أخرى، ولا مكان على آخر، عَدَّد على مسـامعهما أسـماء الأمراء والقادة والفرسـان والنُّظار العائديـن برفقتـه، واتفق معهما على سـاعة المغادرة. وكنـت أنا قريباً أجلس، أنتظر مناداته تحت أي لحظة، لأسرج حصانه كي ينطلق.

1 ـ الفاشـر عاصمة شـمال دارفور الحالية، حيث اتخذت عاصمة لسلاطين سلطنة دارفور منذ قيامها إلى سقوطها 1916م.

نهاراً، والشمس تشوي الأمخاخ، كُنتُ أمضي حافياً في دروب أم درمان المهزومة الجريحة، حاسر الرأس، يُبللني العرق ويخنقني الرُّعب. خلعتُ جلباب المهدية المرقَّع ورميته بعيداً ولبست عَرَّاقِي[1] الدمور الأبيض القصير، وأخذت أركض، أنفاسي تتقطع من الجري والهرولة المتواصلة؛ عليّ أن ألحق بموكب سيدي علي دينار الذي سبقني في الخروج إلى سِكّة غرب أم درمان المؤدية إلى مدينة النُّهُود في كردفان، ومنها صوب فاشر السلطان أبو زكريا؛ مكاننا وأرض أجدادنا. في الفجر، قبيل خروجه برفقة الفرسان الثلاثمائة، بعثني برسالة إلى الأمير رمضان علي، الذي كان يتهيأ لقتال الكفرة الأنجاس تحت ظلال الراية الزرقاء؛ راية الأمير يعقوب _ جُرَاب الرَّأي، أخ الخليفة عبد الله التعايشي ووزيره الأول. في الفضاء المتسع بين جبلي سِرْكَاب وكرري قابلت الأمير رمضان وَدْبُرَّةْ ضمن أطواف استكشاف جيش الخليفة الليلية، سلمته الرسالة وتواعدنا على اللُّقيا عند تلال التُّرعَة الخضراء في أرض كنانة بالنيل الأبيض، حيث ينتظرنا هناك سيدي علي دينار وبقية الرجال والفرسان.. لكنني هنا؛ في أعلى تلال جبل كرري المتناثرة، أحس بالتعب يشدني شداً نحو الأرض لألتصق بها، ثم أنجر زاحفاً حين سماعي أنين الآهات، متقطعة ومتوجعة، آتية من رمال سفح الجبل، من مَكمني العالي، حَدّقتُ في الرجال؛ آلاف الرجال، جثثهم متناثرة مُمزَّقة

1 _ الجلباب القصير.

ومختلطة بالدماء، الرايات مُنكّسة والرماح والسيوف مبعثرة على طول السفح الجبلي الممتد في الأفق، حتى مقدمات بوارج الكفار في لجة النهر. الموت يُخيم على المكان، والصمت سيده، بعد أن كان ضاجاً قبل ساعات قلائل بالهتاف والحماسة وتحدي القدر. أبصرت الجرحى، المئات منهم، يزحفون نحو ظلال ما، وهمية وغير مرئية، سرابية مُتَرَاعِشة يتجهون صوبها، يجدّون في الزّحف بمثابرة وجَلَد والدماء تقطر من أجسادهم مُخيلةً أرض الجبل إلى اسوداد داكن، كل بقعة في السهل ضرَّجتها الدماء واحتضنت مزقاً من اللحم المتطاير وأشلاء الأجساد. أحسست بدوار كاسح ينتابني، وأنا أحاول تبيّن ألوان رايات الكتائب المقاتلة وفرزها، أحاول تقريب الوجوه مشوهة الملامح من ملامح وجوه الذاكرة المشوشة، الأجساد الفتية لأبطال التقيتهم صباحاً، الجلاليب المُرقّعة لآلاف المقاتلين، كنت بينهم فَجْراً، حجارة الجبل الساكنة ورماد الحريق، شبح البوارج الحربية الرابضة على شاطئ النيل قريباً، تحصينات طوابي الطين المجوفة على مُشرَع الموردة التي لم تقِ أحداً.. وذكريات الأمس القريب الضاجّة بالأمل والمملوءة بالإيمان، تلاوة آيات القرآن وحماسة الرجال وهتافاتهم الداوية، صهيل الخيول وحمحمتها، النيران الموقدة وعليها تنضج عصيدة الذرة وبليلة اللوبيا، صليل السيوف والرماح وهي تُسنّ وتُسنّ، شرارات التحدي وهي تبرق في حدقات العيون... ثم «سيدي علي» وهو يومئ إليّ بذقنه لألحق

بوَدْبُرَّة وأدس بين أصابع يده والرمح الرسالة، التفاتة وَدْبُرَّة السريعة ونظرته الأخيرة والعميقة في وجه «سيدي السلطان» وهو على ظهر جواده المنطلق غرباً باتجاه أرض الأجداد، مُلوك الغرب، وسلاطين الزمان؛ همزه للحصان وانسرابه ذائباً بين جهادية جيش الأمير شمس الدين المتحرك باتجاه نهاياته المُدَّخَرة أسفل جبل كرري.

في الصباح يا ناس، صباح يوم مقتلة كرري هذا بالذات، سمعت بـأذنيّ هاتـين؛ الطانتـين في ألم الآن؛ الأمير يعقوب وهـو يهتف أمام مقاتلي جهادية الراية الزّرقَاء المحتشـدين في ألوف: (تبلديَّة[1] وقعت تبلديَّـة وقعـت). ثـم حمحمـة الخيـول وتصاعد الغبـار متلولبـاً إلى السـماء.. كنت أركض خلف جواد القائـد الخليل ود أكرومة، حتى أسـبقه وألتـفّ من أمامه محركاً أصابع يدي بإشـارة المـكان والزمان ليفهـم الرسـالة، وأن الموعـد هناك عنـد الترعة الخـضراء إن طاش الرمح وانثَلم السيف وأزهقت أرواح الرجال وانكسرت راية البلد، وإن لم يطش السـهم فالموعد أيضـاً هناك، على درب الترعة الخضراء الذي يقود إلى بلدات النهود، وكبْكَابيَّة والضِّعين وفَاشِر العظمة.

الآن؛ ما الذي يبللني ويبلبلني؟ العرق أم الدموع؟ الدماء أم مطر البارود؟ ألا زلت أتقلب في تلال جبال كرري يعتصرني الأسى ويقزمني الفـزع؟ أم تـراني أزحف على رمـل أرض برنجيَّة الداميـة لألحق به؛ منقذي وسيدي ومولاي، في قصره وبلاطه السلطاني، في دروب جبل مرَّة[2] منقادين إلى جبانات السـلاطين العظـام ومراقدهم الأبدية، في المفازات التسع والتسعين، عند أعلى شلال سَاوْرَا، أسفله، وبين جنائن قْلَول الساحرة، أم هناك بموازاة ترقرقات مياه النيل الأزرق قريباً من

1_ شجرة استوائية ضخمة تنتشر في غرب السودان.

2_ جبل مشهور يقع في غرب السودان بدارفور.

البـوارج الحربية المغتصبة، وفي سرابات صحراء العَتْمُور على قضبان السـكك الحديـد، في غابة السـنط وطريـق درب الأربعـين الطويل، عنـد منحنى ميناء ملِّيـط باتجاه واحة العوينـات وأرض المِيدُوب، في مواجهة فرسان قبيلتي الرزيقات والبني هَلبَة على قيف البحر وتحت انهـمار المطـر، أم في سـلا مـع جنود السـلطان أبـو الخـيرات ومقاتلي الفِرتِيت الأشداء ذات ليل بعيد، أم هي كَلَمَا وغارات أولاد التَّعَايشة المراوغين بأحصنتهم النادرة، هناك، على شفا حفرة النحاس.. يا الله.

..حلقي؛ يا ناس، جرعة ماء، جُغْمَة ماء، العطش المذل حاصرني هناك، جرعة ماء تمنيتها هناك، حلقي تقرَّح بالعطش هنا، وأنا أزحف رعبـاً من مقتلة كـرري العظيمة صوب خُوْر السـنط، متتبعاً ببصري خيـول الكفار الراكضـة وهي تنهب أرض الجبل متسـارعة، أزحف مسـابقاً غبارهـا المُثـار غِلالَة مـن احمرار لأُطـلُّ على فداحة المشـهد: الرمـاح والسـيوف؛ الآلاف مـن الرمـاح والسـيوف، رمـاح الموت والفناء منصوبة في طين الخور ولزوجته، حادة ولامعة تُحدّقُ بالسماء، والرجـال المقاتلون، غرقـى لحظتهم، أحياء وأموات، وسـط الطين، غرقى شـهيقهم الأخير، حياتهم الأبديـة وعبورهم النهائي.. الرِّماحُ المسـنونة أبصرتهـا منصوبـة تتلامع، إلى السـماء ترنو، سـنانها تنادي، تسبح يا ربي، تسبح باسم ربي، تسبح يا الله، يا حنّان يا منّان، يا كاشف الغـم، يا مقلـب القلوب ثبتها.. باسـم الله مشرعة الرمـاح، وخيول العـدو العنيدة آتية تسـابق الأتربة الحمراء، يا ناس، إلى خور السـنط

تصهل راكضة، أسابقها، أهرول ببصري، أحتضن بعيني المرمدتين هاتين صدى المُعَانقة وسيلانها الدامي، صدور الخيول المشبوحة في أسى تقفز قفزة الموت الأخيرة؛ تُحَاضن رماح الرب المُشرعة في نداء. عند خور السنط يا ناس أكلني مرأى الموت المفتوح على الأبدية، أكنت أحلم، أهلوس بنعيم الشهداء وجهنم الكفار.. أأهذي مثل الآن أسفل سدرة برنجيَّة يابسة الأوراق؛ لأبصر في هنيهات انفصال الرِّقاب والأيدي وتطاير الأَمخاخ، ودفع البارود المفاجئ في كل اتجاه؛ انسراب الأرواح إلى العالم الآخر وانغلاق باب الحياة إلى الأبد.. من مات هناك يا جفال، كم رجلاً قضى، كم فرساً فرت بكافرها إلى لظى الجحيم وكم فارساً سبح معطراً بدمائه في بحور الجنان...

وهنا في برنجيَّة، الخفق الأخير يا ناس، كيف أعاد دوي المدافع أمامي تخلق الأيام الدامية وانولادها من جديد، ظلال الجبل الذاهبة إلى إظلام، وطين الرماح المبتلة بالدماء؛ ومقاتلي قبيلة الهَدندوة بشعورهم الوديكة وقفزاتهم التي تسابق عزرائيل إلى السماء.. رماح الله، والخيول المهرولة مجنونة في كل اتجاه، ثم هناك على ضفاف الفناء، على مصلاته _ يا ناس _ كان متقرفصاً، أبصرته محاطاً بالنهايات المرجوة ومكللاً بجلال السحق النبيل، خليفة المهدي عليه السلام عبد الله التعايشي ود تور شين، يا ناس، يحصي في سرابات أمجاده المنسربة أسماء شهداء خور السنط واحداً واحداً ويُعدّ الروح لمعانقة الملاك الأخير..

يا "سيدي السلطان علي بن السلطان محمد ود السلطان الفضل" أنجدني والحقني، جرعة ماء، جُغمَة ماء، أبلل حلقي بها، أرطب يأسي بها، لأكمل زحفي إليك، ونحوك أمضي، أعرني لجام جوادك اللَّصدا الآن، لأعقل صبري وأقيّد قلبي، ألجم خوفي وقلقي ونهاياتي.

أغوص في الضوء الساطع أسفل سدرة برنجيَّة، قرص الشمس ينفتح فوقي تماماً، أنسرب إليه وألج بوابة أيامنا الأخيرة، يا ناس، لا، في الأشهر الأخيرة لوجودنا داخل معسكرات تدريب جهادية مقاتلي المهدية في أم درمان، حين أسرَّ أمين بيت الأمانة قمر الدين عبد الجبار، بشيء ما لسيدي ومولاي السلطان علي، عيناه الضيقتان تتحركان في كل اتجاه وهو يهمس ويهمس في أذني سيدي علي، سرٌّ كبير جعل سيدي علي يسرّع لقاءاته بالأمراء والفرسان والأتباع، ويوجههم ويذكرهم بالذي تركوه هناك في أرض السلاطين والأجداد في دارفور، تحت رذاذ شلالات جبل مرة وفي غابات أرض الرزيقات وواحات الزَّغَاوة والمَاهرية في أقصى الشمال وعند سافنا التعايشة المطيرة ووديان دار مسَاليت.. كنت حافياً أدُور معه بين معسكرات تدريب مقاتلي المهدية في فضاء غرب أم درمان الشاسع، وأدخل معه مساجد وزوايا مدينة القرآن ورَاتِب الإمام، وبين بيوت أنصار الخليفة عبدالله المُرحّلين من أراضي الغرب القصيّة، لم يكن هناك ما يَشِي بافتضاح السرِّ، ما اتضح لأحد أن أمراً ما جللاً وخطيراً نقله أمين الأمانة إلى سيدي علي دينار، وجعله قلقاً

وساهماً حتى في حضرة الخليفة عبدالله ود تورشين والأمير يعقوب جراب الرأي.. الأمير رمضان علي، كان يلتقط في أيام متتابعات جملة أو اثنتين من أحاديث سيدي المنثورة في غموض ويمضي، القائد وَدْبُرَّة كان يقف أمام "سيدي" لثوان يقرأ شفتيه المتمتمتين بالسرِّ ويمضي، الملك محمود الدَانِدِنْجاوي، كان يهز رمحه فقط ويمضي، وأنا أتنقل هنا وهناك بين المعسكرات والبيوت والجوامع، أخبئ الوريقات الصغيرات بين أصابعي وطيات ملابسي، أسلمها للرجال في معمعة التدريبات وصلصلة السيوف ودوي بارود بنادق الكرمبل الكتيم، أو في ساعة سقيا ماء، تناول كِسرة يابسة ممزوجة بمرقة مُلاَحْ كَجيك[1]، لحظة استجمام وراحة للمقاتلين، حلقة قراءة راتب الإمام، أجري من مكان إلى مكان في أم درمان أيامنا الأخيرة.. قال سيدي: «إنها المعركة الأخيرة، المقتلة الأخيرة، يا جفال»، ثم أطرق طويلاً.. تلك أشهر أم درمان القلقة المشبعة بأمل الانفلات والانعتاق والعودة.

انهض من على أرضك المغتالة يا برنجيَّة النداء الملتاع، أترنّح منجرَّاً، أسقط، أستمر في السقوط إلى مدى لا أدري له نهاية، منكِ أنأى يا برنجيَّتي الدامية، مستمراً في السقوط، أنزلق داخل حفرة مظلمة بلا قرار، يصطدم جسدي بأجساد مقاتلي الفرتيت الأشداء؛ جنود وحراس سيدي السلطان علي دينار في معسكر وادي عِريبُو، لا

1_ الملاح، دارجة سودانية تعني الإدام والكجيك السمك المجفف.

يحس بسقوطي أحد، لا يهتم لمرآي أحد، في ذلك الليل بعيد الزمان، ومقاتلو الفرتيت الأشاوس يهتفون بحياتك "السلطان علي ود زكريا"، أتقدم خفيفاً كظلٍّ وأمسك بلجام جوادك، أنحني لتصعد وتعتلي صهوة مجدك ومضي نجمك، أُعلنكَ مع الهاتفين سلطاناً لنا وعلينا وعلى الأرض جميعها وعلى المسلمين، وأودع مع المودعين عهد السلطان أبو الخيرات إلى الأبد. هل قتلنا أبو الخيرات في ليل عريبو ذلك اليوم "سيدي السلطان"، هل قضى جنودك الفرتيت الأشداء على حراسه ومقاتليه من أولاد زغاوة وصبيان الفور الحالمين بالإمارة؟ هل حققت الأبدية، منذ أزلٍ، هذا الوقت من ليل وادي عريبو ليصيّرك سلطاناً وإماماً للمسلمين وكاسي كعبتهم المشرفة؟

الدوائر المظلمة الآن "سيدى السلطان" جاء وقتها، الدوائر الصغيرة السوداء تتكاثف أمام عيني، ملايين الدوائر تتراوغ وتحجب الرؤية أمام وجهي يا سيدي، أقع على رمل برنجيَّة الناعم الممزوج بطعم الدم، أحس بمذاقه في فمي، السواد الطائر في عيني يتحد، يصير حجاباً من عتمة، ثم غلالة بيضاء شفافة، ثم أراك؛ أُبصِرنا سوياً في دار سَلا وفرسان التعايشة ميتون تحت جذوع الأشجار، أجسادهم مبعثرة في المكان، رجال التعايشة فارون صوب أدغال أشجار الكِتِر والهشَاب والليّون وخيولهم ضائعة في السراب، ونحن هناك بعيداً وراء كَاجا سِيرج، في حروب المعَاليا والرزيقات نخوض في المستنقعات المطيرة، أبصر الأمير تيراب في شكا، سرعة الجنود في

قطـع الوديـان والوهاد والغابات الصغيرة، الغلالة يا سـيدي تتلون بالأحمر، بنادق البارود ذات الطلقة الواحدة تحصد الجباه، الرسـائل المطوية الصغيرة جداً تنذر بالهلاك، ناظر الرزيقات موسى مادبو، على صهوة جواده يقف متحدياً هناك.. أراه شـامخاً، أبصر مقاتلي المعاليا، المئات منهم يا سـيدي، رقابهم تتطاير تحت حد سيف الأمير تيراب، أرى الخيـول في كاجا سـيرج تركض ذاهلة من جديـد، في فُوجَا، في جبل الحِلّة، في شكا مع رجال عربي، ومع الكبابيش في كردفال، ضد المهرية في الكُفرَة وبرنجبيل وفي مواجهة عناد وقوة الفَكي سِـنِين في حرب السنوات السـبع، في كبكابية الانهزام.. الذباب الطّان، دوائر سوداء تنداح من جديد أمام عيني وتعتمني يا "سيدي السلطان".

وحكيت له قائلاً:

«يا شيخ إِسَاغَة، بعد مقتل السلطان أبو الخيرات في منطقة وادي عريبو، نال سـيدي علي ود زكريا بن محمـد بن الفضل، أحقيّة حكم السـلطنة دون منازع. أرض دارفور الشاسـعة مـن شرقها إلى غربها ومـن جنوبها إلى شـمالها دانت له بتسـليم وإذعان تامـين وبلا قلاقل أو تمـردات من قبل بقية أمراء قبيلة الفـور الحالمين بالعرش، أو نظار القبائـل الكبرى النافريـن بطبعهم الشرس. بيـد أن موت عثمان آدم جانـو؛ أمير خليفة المهدي في أرض كردفان ودارفور، وتعيين محمود ود أحمد قاسي القلب أميراً جديداً، دفع بسيدي للالتجاء إلى مفازات جبـل مرة، مأمن السـلاطين، ومركز قوتهم وموئـل قوانينهم. مجيء

رسل محمود ود أحمد إلى الفاشر من الأبيض آذن بتقلبات الزمان وتداخلات الأقدار وكرّها وفرّها، كانت رسائله ذات الوقع الثقيل تصل تِباعاً إلى سيدي وتطالبه بالطاعة والنزول من جبل أجداده المقدس والانضمام إلى ركب حكم المهدية، الماضية حينها إلى حتفها رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً بفعل الإنهاك وبعثرة القبائل وترحيلها وكثرة الحروب والجوع الذي ضرب أصقاع البلاد.

كنت قربه، وهو يبدل وينوع في الأعذار مع كل رسالة مرسلة إلى الأمير محمود ود أحمد، تبين مسببات تأخره في العودة إلى فاشر السلطان والانضمام إلى القائد عبد القادر دليل، ليقوده من هناك إلى الأمير محمود ود أحمد في الأبيض، ومن ثم يشد الرحال إلى عاصمة المهدية البقعة أم درمان؛ لمبايعة خليفة المهدي عليه السلام عبدالله التعايشي. أنا قربه دائماً، أسمعه وهو يُملي الرسائل على كاتبه: «تلقينا رسائلكم المباركة وفهمناها، باركم الله وجزاكم ألف ضعف، إن قلوبنا مملوءة بحبكم، وهدفنا أن نكون على اتصال بكم والتعاون معكم في دعم الدين ومواصلة طريق المهدي»، يطرق سيدي لهنيهات وعيناه تذويان، ثم يقول لكاتبه: «أكتب: بكل أسف لم تردوا على رسائلي السابقة، وأعدكم بمجرد الرد عليها سأكون معكم بعد شهر، وأقابل الأمير محمود».

في تلك الأيام القاسية من العزلة والإبعاد والحصار، يا أيها الفكي المبروك إساغة، أطلق سيدي فرسانه وحراسه ومستشاريه

حتى يتجولوا بحرية على منحدرات وسفوح وقمم جبل مرة، وكنا هو وأنا، نمضي بعض يومنا تحت رذاذ شلال ساورا، أو نشق في تؤدة الطرق العشبية الخضراء في جنائن قلول الساحرة. يقلب سيدي حبات البرتقال أبو صُرَّة بين يديه كالكرة، ولا يأكل منه شيئاً، يناديني: «جفال، أسرج الحصان»، أسرجه ليمضي متجولاً في تلك الحدائق التي تشابه الجنان، أغلب وقته. حين قال يوماً ونحن نلج باب الدار في أعلى قمة الجبل: «بسم الله يا قوي يا جبّار عليك توكلنا» عرفت أن رحلتنا إلى البعيد قد دنت.

ستمضي، يا فكي[1] إِسَاغَة، ست سنوات أم درمانية بطيئة، قاحلة ومريرة، مجللة بالحروب الصغيرة المتتالية، في إنهاك وجَلَدٍ، ومقيدة بالأسر المهين وملازمة سجناء الترك البيض في حراسة الأمير إبراهيم الخليل، إلى أن اقترب في أحد الأيام المملة الطويلة أمين بيت الأمانة قمر الدين عبد الجبار من أذن سيدي علي، وهمس بسرِّه الباتع، المأخوذ همساً بدوره عن فم الخواجة المسلم صلاح الدين باشا.. لتتضح بعدها الرؤية وينكشف المسار. وقبل أن يعتلي سيدي جواده ويأمرني بالانطلاق محملاً ببشارات العودة إلى أرض الأجداد من جديد، إلى تلال وقِيزَان فاشر السلطان، إلى الأميرات الميارم في خَيرخَنْقَا وحكماء الفور في أرض الجبل.. وإلى هنا، أرض برنجيَّة الدامية.. أين الروح يا سدرة المنتهى؟".

1_ أصلها فقيه، رجل الدين معلم القرآن.

(2)

فاشر السلطان

«إنّ كل ما نرغب فيه هو الجهاد، لأن الإسلام ضاع، وهؤلاء الكلاب الملاعين – الإنجليز والفرنسيين – جعلوا كل المسلمين في السودان كفاراً»

علي دينار إلى السلطان العثماني – 1916م

لم تكن مدينة الفاشر، عاصمة سلطنة دارفور، في تلك الليلة من شتاء سنة 1916م، بعيدة عن إرهاصات الأزمة التي تعصف بحكم السلطان علي دينار، وأمرائه ومستشاريه وحاشيته، في قصره البديع جوار بحيرة الرَّهد، ولم تكن في حياد عن أجواء الكآبة التي بدأت تسري بين الأميرات من المَيَارِم في حي خير خنقا، المضيئة أنوار بيوته بخفوت في ظلام هذه الليلة الباردة، ناقلة وقع الحوارات القَلِقة على المصير المتكوِّن في ثنايا الاستعدادات المتوالية لأمراء السلطنة، وقادة الجيش، الذين بات غيابهم يمتد لأشهر في معسكرات التدريب في جبل الحلة، وبرنجيَّة، وأبيض، أو في رحلات الاستطلاع المتوالية في طريق درب الأربعين، وسكة القيزان، إلى مركز النهود، وفي الدروب والمسارات الرملية المتماوجة ما بين مليط وجبل العوينات، وسكك

دارا، ونِيَالا الجديدة التي بدأت في التفتح أمام الوافدين الأغراب والأجانب. وكما في بقية أحياء المدينة التي تنام مستريبة منذ بداية هذا العام؛ كان الحاج عبدالماجد ود الفكي، أحد كتَّاب السلطان علي دينار المقربين، يحس بثقل الهم يضغط على قلبه ويشتت أفكاره، وهو يتناول من زوجته الحاجَّة نفيسة الطحاوي بت الريف عباءته وعمامته بعد أن أحكم تثبيت الحزام على وسطه. قالت له نفيسة وهو يتهيَّأ للخروج متوكئاً على عكاز الأبنوس:

ـ كان تؤجل المشوار لبكرة يا حاج، الدنيا زِيفَة وبرد بَرَّه.

قال لها:

ـ يا نفيسة، لازم أقابل الشيخ محمد آدم الليلة، بكرة ما معروف ألقى وقت أم لا، كمان زينب أختي لابد أقعد معاها قليلاً.. رسائل اليوم ما مطمئنة، وسيدي السلطان علي، ناوي على حرب طويلة.. سأكون ضمن مرافقيه من المستشارين والأمراء والقادة، ولا أعرف هل سأعود أم تُكتب لي الشهادة.

خرج وترك بت الريف وراءه تغشى وجهها حلكَة الهموم. الطريق مظلم والريح تصفّر وتبعثر ذرات الرمال الناعمة من حوله. تأمَّل من بعيد الأنوار التي تضيء في بيوت الأميرات الميارم في حي خير خنقا. اعتلى تلال الرمال ببطء وألقى نظرة طويلة على ظلال إنارة القصر السلطاني المتراقصة على بحيرة الرهد.. غذَّ السير تجاه

حـي مكركا، وحنين واجب يدفعه للالتقاء بأخته زينب بت الفكي، وزوجها محمد آدم.

هذا الرجل الخمسيني قوي الجسد؛ الحاج عبد الماجد فضل المولى ود الفكـي، فرَّ قبـل عشرين عاماً أو يزيد، مـن مدينة الخرطوم، بعد أن اجتاحتهـا جيوش المهديـة بقيادة الإمام محمد أحمد المهدي، عقب مقتـل الحاكـم العـام غـردون، وهزيمة الجيـش التركي أمـام جيش المهدي، والقضاء عليه تماماً. اسـتيقظ الشـاب –حينها_ عبد الماجد في صباح سيطرة المهدويين على الخرطوم، ولم يجد في بيت عمه بابكر الدقيل أحداً سـواه وأخته الطفلـة زينب بت الفكي، حملها على كتفه وجـرى فزعاً بين شـوارع وأزقة المدينة، ومشـاهد الدمـاء تنتشر من حولـه، وأصـوات الرصاص مختلطـة بصيحات النصر تُصـمّ أذنيه، هرب في دروب عشـوائية بلا هادٍ، إلى أن وجد نفسـه في قافلة تجارية صغـيرة، كانـت في طريقهـا إلى كردفـان ودارفـور في غـرب البلاد. انضـم إليها ومعـه أخته زينب، ثـم أخذ يتنقل من مدينـة إلى أخرى إلى أن حل بمدينة الفاشر، ووجد سـلطانها علي دينار قد عاد ووطَّد أركان حكمـه في أرض دارفور بعد اندثار حكم المهدية، واستشـهاد الخليفة عبدالله التعايشي. بعد اسـتقراره في الفاشر عرف عبد الماجد ود الفكـي لأول مرة قيمـة الدروس التي تلقاها عـلى يد عمه بابكر الدِّقيـل في تعلـم الكتابـة والقراءة، وإجـادة التدوين، وحفظ سـور القـرآن الكريم. كان يعدَّه ليكون سـاعده الأيمن في أعماله التجارية

المحدودة في سوق الخرطوم. في فاشر السلطان حلَّ كاتباً لدى تجار قوافل درب الأربعين، والتجار الجلَّابة القادمين من دار صباح، ثم ذاع صيته ككاتب بديع الخط يحفظ القرآن ويجيد تماماً ربط الحسابات وتنظيمها وتبويبها، إلى جانب كتابة الرسائل المرسلة مع القوافل، بعد ذيوع شهرته انتقل للعمل في زرائب للمحاصيل والمواشي يمتلكها أحد الأمراء من أبناء السلاطين الأثرياء، ومنه ساقته الأقدار ليكون كاتباً ضمن طاقم كتَّاب بلاط السلطان علي دينار في قصره المنيف عند أعلى روابي الفاشر.

في صباح اليوم الذي انقضى، كان عليه أن يسطِّر رسالة ردَّاً على قائد جيش الإنجليز، الذي بات تهديده ماثلاً وقريباً بغزو المدينة، وإخراج السلطان وحاشيته منها إلى الأبد. كان يحثّ السير ويستعيد في حزن مشهد الهروب القديم، وزينب الصغيرة على كتفه، هرب بعكس اتجاه الآخرين، شق طريقه في حواري الخرطوم غير مبالٍ، بينما فر الآخرون شمالاً إلى أرض النُّوبَة، عَبَر النهر الذي شهد فجر اليوم غزوة الدراويش الكبرى، ومضى غرباً في ذات الطريق الذي سيسلكه من بعده السلطان علي دينار في رحلة عودته الظافرة. مكث في مدينة النهود عامين، عمل خلالهما في عدة مهن، إلى أن تعرف على رفيقه وصديقه الشيخ محمد آدم، الذي سيصير زوج زينب أخته، فقررا الاشتراك في رحلة تجارية إلى الفاشر، حيث استقر هناك متدرِّجاً ومتنقلاً على سنّ قلمه إلى أن بلغ القصر، وصار لصيقاً

بالسلطان، وشاهداً على القادم المدسوس في رحم الأقدار.

قطع المسافة الطويلة نسبياً، من بيته في حي القبة، إلى بيت أخته زينب وزوجها محمد آدم في حي مكركا، في وقت سريع، وهو يَنتزِع قدميه بخفة من التربة الرملية ويتدرج في الأرض التي تنبسط أمامه ثم تصعد به عالياً لتنبسط من جديد في تضاريس المدينة المتباينة علواً وهبوطاً، أحسَّ بالدفء وهو يَطرُق برأس عصاه باب الصَّفيح. وجدَ صديقه وزوج أخته محمد آدم في انتظاره مرتدياً عرَّاقي خفيفاً، تقابلا بالأحضان كأنهما لم يلتقيا منذ زمن بعيد، قاده صديقه إلى غرفته الداخلية، حيث وجد زينب تضع للتو صينية طعام العشاء على شَمْلة صوف مفروشة وسط الغرفة، في توقيت دقيق مع قدومه. قفزت كالطفلة نحوه وهي تقبِّل يديه.

محمد آدم، زوج زينب بت الفكي، كان معروفاً في أنحاء شمال دارفور قبل عودة السلطان علي دينار المظفرة إلى الفاشر، واستعادته لعرش أجداده، الأهالي يعرفونه كأحد أمهر صائغي الذهب والفضة في مركز النهود والمدن والقرى المجاورة، كما لشهرته علاقة بشيخه ومعلمه صائغ الذهب ومعلِّم القرآن الشهير بمدينة النهود، الفكي حسن العمرابي. بعد أن قرر الاستقرار في الفاشر، أسس بمساعدة صديقه عبد الماجد دكاناً صغيراً في السوق الكبير، منه توسّع وتدرَّج في سنوات قليلة ليصبح شيخ صاغة السوق الكبير، إلى أن سمع بمهارته وجمال نقوشه وتشكيلاته المبهرة على الذهب والفضة

السلطان علي دينار، وقرّر ضمّه إلى صاغة القصر السلطاني، وأن يكون أحد صاغته الخاصين عند الطلب، وأن يشرف على مصنع سَكّ العملة الذي يديره صائغ آخر، لكنه سجين من أبناء النهود، إلى جانب اشتغاله وممارسة مهامه كشيخ للصاغة في السوق.

تناولوا العشاء المكوَّن من شيَّة لحم الضأن المدخّن، ومعه شرائح البصل والفِجْل، وسلطة متنوعة من الخضراوات الأخرى، وطبق عَصيدة دُخن مملَّحة باللبن. كانوا صامتين وهم يأكلون، زينب تحسّ بثقل الهموم على قلبيْ أحبّ رجلين إليها في هذا العالم. همست لأخيها:

_ أخوي الحاج، لا تحملوا هماً للحرب، سيدي السلطان علي دينار قادر عليهم، كما قدر على من سبقهم.. سيدي مبروك والله ينصره وينصر دينه يا أخوي.

ابتسم عبد الماجد، وهو يُحدِّق في وجهها الطفولي الحبيب إلى قلبه، لكنه وجَّه حديثه إلى زوجها محمد آدم:

_ تحداهم مرة أخرى في رسائله يوم أمس، وقال لهم إنه لن يتعامل معهم بل سيتعامل مع الخديوي مباشرة.

ردَّ محمد آدم:

_ فِكْرَكْ فرسان الجيش الأول قادرين على مواجهة مدافع وبنادق الخواجات الملاعين ديل يا حاج عبد الماجد؟

طأطأ حاج عبد الماجد رأسه، وسرح مفكراً. لملمت زينب بت الفكي أواني الأكل ومضت إلى غرفتها الداخلية لتكون قرب صغيرها الرضيع عبد الماجد. قال الحاج لصديقه:

_ اليوم أملى عليَّ أربع رسائل، الأولى كانت إلى الشيخ أحمد السنوسي، إمام السَّنُوسيَّة في ليبيا، يطلب منه الإسراع في إرسال ما وعد به من أسلحة وبنادق ودعم، تواً وعلى الفور. أما الثانية، فكانت إلى سلطان دار المساليت يطلب المشورة في ظاهرها والدعم في باطنها. الرسالة الثالثة حفظت كلماتها وفحواها ومعناها من شدة تركيزه على جُملها وإعادة صياغتها، وكانت إلى السلطان العثماني، أمير المؤمنين، وأرسلها إلى الآستانة مع قوافل التجار المسافرة بدرب الأربعين للتمويه. مما قال فيها يا محمد آدم: «وقد أحاطت أيدي النصارى الكلاب الكفار بالمسلمين من يميننا وشمالنا ووراءنا وأمامنا، وحازوا ديار المسلمين كلها، ممالك البعض سلطانها مقتول، والبعض سلطانها مأسور، والبعض سلطانها مقهور، يلعبون بأيديهم كالعصفور، ما عدا بلادنا دارفور، قد حفظها الله من ظلمات الكفار. والداعي أنهم حالوا بيننا وبين الحرمين الشريفين اللذين حرسهما الله ومنّ عليكم بخدمتهما. ولم نر حيلة نتوسل بها لأداء الفرض الذي فرضه الله علينا من حج بيته الحرام، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام».

صمت بعد استرجاعه كلمات الرسالة وإعادة تلاوتها على مسامع صديقه، الذي سأله بقوله:

ـ والرسالة الرابعة يا حاج؟

لـفَّ الحـاج عبد الماجد ود الفكي عباءته جيداً على جسـده، وبدا كأنه يتأهب للمغادرة:

ـ الرسـالة الرابعـة يا محمد أخوي، رسـالة غضـب ولعن وتحدٍّ، أرسـلها سيدي علي إلى المدير الإنجليزي بكردفان، ووصفه فيها هو ومـن معه من الإنجليـز وجنودهم بالكفار والـكلاب، وأخبره بأن مصيرهم الجحيم الذي سيذهبون إليه في النهاية.. لقد تحداهم بقوته وجبروتـه يـا محمد آدم، وقـال لهم إنهـم اختاروا الموت حـين قرروا مواجهتـه، وإننـا نرحب بالموت كشـهداء باسـم الله وللفـوز بالجنة والسـعادة الأبديـة.. ومـن ضمن ما أملى عـليّ يا محمـد آدم: «إننا لا نخافكم وسنقاتلكم بالرماح والسْفَارِج[1]» وكتبت بيدي هذه «والله إذا تحركتـم أو ثبتم فسـوف أسـير إليكم بـإذن الله أينما كنتـم».. إنها الحرب الملعونة من جديد يا محمد أخوي.. الحرب والموت والهلاك.

صمت كاتب السـلطان، بينما زوج أخته شـيخ الصياغ محمد آدم يفتش عن كلمات مناسبة ليرد عليه بها، إلى أن قال:

ـ يـا حاج، الله تبارك وتعالى ناصر عبـاده على الكفار والمنافقين، وإن شـاء الله سـيدي السـلطان عـلي ود زكريـا منتـصر عـلى جيش الإنجليز الكفرة.

1 ـ ادوات محلية خشبية معقوفة تستخدم في القتال.

تبسم عبد الماجد في وجه صديقه وصفي روحه، ربت بيده على كفِّه، واقترب قليلاً منه:

_ يا محمد أخوي، إذا حدث الدُّوَاس[1] واشتعلت الحرب سأكون في رفقة السلطان وفي مقدمة المقاتلين بلا شك، لا يمكنني أن أتخلف أو أفلت من المواجهة هذه المرة.. أوصيك على زينب يا صديقي، أوصيك عليها كأنها ابنتك وليست زوجتك فقط، ارعها وحن عليها وعاملها برفق يا أخي.

وهما عند باب الخروج أقسم عبد الماجد على صديقه ألا يذهب معه أبعد من ذلك. خرج وريح الشتاء الباردة تلفح وجهه من جديد، أحكم عباءته على وسطه وصدره، وأنزل طرفاً من عمامته وجعله لثاماً على وجهه. ارتقى ببطء تلة حي مكركا الرملية العالية، وأطل بعينيه مرة أخرى على أنوار منازل الميارم الأميرات المضاءة حتى تلك الساعة المتأخرة من ليل الفاشر في حي خير خنقا البعيد، تأمَّل للمرة الثانية الإضاءة الخافتة لقصر السلطان، المنعكسة ظلالاً على مياه بحيرة الرهد في ترقرقات هادئة.. أدار بصره في أنحاء المدينة الواسعة، وحدد بحسه الداخلي في ظلامها الشتوي الدَّامِس مواقع هضابها الست، ومنازل أحيائها الموزعة ما بين تدرجات رملية بديعة صاعدة وهابطة، توقف ببصره في موقع سوق بئر حجر قَدُّو،

1_ القتال.

واسترجع سريعاً أيامه الأولى في دكان راشد ود الريف، إشرافه على توزيع وتصنيف البضائع المحملة على الجمال في رحلة درب الأربعين الموسمية إلى مصر والحجاز، انحناءته طوال اليوم على دفاتر الحسابات يدون كل وارد وصادر. زواجه من نفيسة الجميلة أخت راشد وأم عياله، التي تنتظره قلقة الآن في البيت. هبط من التلة العالية وأسرع الخطى باتجاه حي القبة حيث هناك تنتظر.

في صباح اليوم التالي، دخل الحاج عبد الماجد، إلى القصر، ووجد السلطان علي دينار مجتمعاً بوزرائه وأركان حربه من الأمراء وقادة الجيش، تردّد قليلاً في الدخول، إلى أن أشار إليه السلطان بالتقدم. كان الأمير ود إبراهيم، رئيس الجيش الأول، يقدم تقريراً مقتضباً عن تحركات جيش الإنجليز في حدود كردفان، وخروجهم من النهود في الطريق إلى ود بندا، واصفاً بدقة عدد سرايا الجنود وتكويناتها من الهجّانة والمشاة والراكبة، جنودها من السودانيين والترك، عدد الإبل والهَجَّانة وتقدير تقريبي يقترب من الألفين للعدد الكلي لجنودها، ثم قدم تقريراً وصفياً آخر يعكس مدى استعداد مقاتلي وفرسان جيش السلطنة في حاميات الكْلاَكْلَة وبِرنجِبيل والطُّويشَة وجبل الحلة وأم شَنقَة، واكتمال التخطيط لنقلهم إلى معسكر برنجيَّة متى ما حانت لحظة الصفر.

جلس عبد الماجد في موقعه على يسار كرسي السلطان، وتحت مرمى بصره، أمامه أدوات الكتابة موضوعة على السَّانِد القصير، أخذ يستمع لحديث السلطان الذي بدا واثقاً في تلك اللحظات من نصر كاسح سيتحقَّق على جيش الإنجليز، وهو يخاطب رئيس الجيش الأمير ود إبراهيم:

_ كثِّف عدد المشاة والفرسان في الطويشة وعراديب الملّم.. البارود والبنادق ستتوافر الأيام القادمة، ستصل مع عودة قوافل الحجاز والكفرة الليبية، اشترينا كمية كبيرة من الذخيرة، بشرنا بذلك مندوبونا إلى هناك.

فتح عبد الماجد أوراق دفتر الرسائل والمكاتبات السلطانية، وغمس سنّ القلم الخشبي في المحبرة واستعد للتدوين. سمع الأمير ود إبراهيم يقول للسلطان:

_ سيدي السلطان علي دينار أبو زكريا حفظك الله ورعاك، نبلغك، وبعد مباركتك، بدأ رجال كرَادِيسنا من الجيش الأول بحفر الخندق حول معسكر برنجيَّة، فصارت الآن مؤمنة ومحمية والحمد لله القوي العزيز.

أمسك عبد الماجد بالقلم الخشبي بين أصابع يده وقبع منتظراً. أبصر وزير التجارة والمال، بشير نصر الشايقي، يبسط أمام السلطان دفاتر جرده الحسابي الشهري لخزانة السلطنة، وسمعه يحادثه في همس حول مخزون الذُّرة في صوامع الفاشر ومخازن دارا ومنواشي، وعدد الجَبارِيك[1] التي تمَّ رصدها في حواكير الجنوب، ويفصِّل بدقة عدد البنادق المتوقع وصولها ضمن شحنة البضائع القادمة عن طريق درب الأربعين من الكفرة الليبية وصعيد مصر في قافلتين؛ الأولى

1_ حقول صغيرة تزرع خلف المساكن.

يحركها تجار الكفرة من أبناء الفَزّان، والثانية يمتلكها تجار أولاد البحر، والمتوقع كذلك من بنادق وبارود طلبها السلطان مع رسوله إلى أرض الحجاز. سأل السلطان وزير تجارته بشير نصر الشايقي، عن أسباب تأخُّر سداد ضريبة بعض قبائل البقَّارة حتى الآن، و... يخفض الوزير صوته أكثر ويبرر ذلك بنزولهم البحر وذهابهم إلى أقصى الجنوب منذ الصيف الماضي وعدم أوبتهم حتى اللحظة.

كان بقية الأمراء وقادة الجيش يجلسون صامتين على آرائك منخفضة متقابلة من الجهتين، بينما السلطان يجلس على كرسي عرشه يكمل محادثته الهادئة مع وزير التجارة بشير نصر الشايقي.. ويقرِّب إليه الوزير الأول محمود الدادنجاوي، طالباً منه تقديم تقريره اليومي عن أحوال البلاد والعباد. دار حديث طويل عن موسم الحج هذا العام، والاستعدادات لتجهيز المَحْمَل والصُّرَّة السنويين ليرفقا مع أفواج الحجيج رغم إرهاصات الحرب القادمة والضائقة الاقتصادية التي تطوق البلاد بسبب شح أمطار الخريف الفائت، إضافة إلى تهديدات قطاع الطرق والهَمْبَاتَة لقوافل الحجاج في كل سكك دارفور المؤدية إلى الحجاز من قلب الفاشر عاصمة السلطنة. قال السلطان:

_ الصرة والمحمل، يجهزان مثل كل سنة كالمعتاد، ويخرجان في وقتهما المعلوم، لا يوجد ما يؤخرهما أو يعطلهما.. والله تبارك وتعالى هو الحافظ وهو الحارس.

استمَّر الحوار بين السلطان ووزيره الأول، وبقية الأمراء والوزراء والقادة جالسون في أماكنهم صامتين، عينا عبد الماجد كانتا تتحاشيان عيني القائد رمضان وَدْ بُرَّةْ، الذي كان يضع لثّاماً على وجهه فلا يظهر منه غير عينيه اللتين بدتا لعبد الماجد وكأنهما مثبّتتان على وجهه، وشبح ابتسامة ساخرة يشع منهما. تأكد عبد الماجد أن توتره بسبب الحرب الوشيكة بات محسوساً، على الأقل للقائد رمضان وَدْ بُرَّةْ، قائد أحد أهم الكراديس المقاتلة والمشرف الأول على كتائب حراسة السلطان واختيار وتدريب فرسانها من خيرة جنود البلاد المُعدِّين للقتال وفق الولاء الخالص لعرش السلطنة. أَلهَى عبد الماجد نفسه بتقليب القلم الخشبي بين يديه، واستعاد في قفزات متنافرة صوب الماضي رحلته من الخرطوم إلى الفاشر. خرج من نافذة ذكرياته حين أحس بأن جميع من في المجلس يقف، والسلطان ينهض من على كرسي عرشه ويمسك بيديه أطراف عباءته الموشاة بالذهب.

بعـد صلاة عصر ذلـك اليوم، في جامع الفاشر الكبير، اسـتدعى السلطان كاتبه الحاج عبد الماجد مرة أخرى في حضور القائد رمضان وَدْبُـرَّةْ فقـط، أحسَّ عبد الماجد بشيء مـن الانقباض لوجوده معهما منفردين دون الآخرين، بيد أن ابتسـامة السـلطان المشـجعة طمأنته قليلاً وهو يناديه ليقترب أكثر بأوراقه ومحبرته وقلمه الخشبي. باغته السلطان بالسؤال:

_ هل ترى أنها النهاية يا عبد الماجد ؟

أجابه وعيناه إلى الأرض:

_ سـيدي السـلطان علي دينـار أبو زكريا، حفظـك الله وأبقاك.. أنت منصور بنصر من عند الله تعالى وتبارك بإذنه، والكفرة الملاعين مـن ورائهم الشـيطان وغضـب الله، وهزيمتهم ودحرهم سـيكون درساً لكل أعداء الدين في كافة البلدان.

حدَّق السـلطان طويلاً في عبد الماجد، الذي ظل مثبتاً نظراته على الأرض بعد إكمال كلامه، قال له:

_ الأمـير ود إبراهيـم، رئيـس الجيش الأول، يـرى في حال أنفذ الكفـرة الملاعـين تهديدهم واقتربوا مـن الفاشر أن نخـرج إليهم في حدود برنجيَّة ونقاتلهم هناك.. لكن اكتب يا عبد الماجد.

أمسك عبد الماجد بقلمه وغمس سنّه في المحبرة وبدأ الكتابة إلى أن وصل: «التقى جزء من جيشنا بالكفار، وحاربتهم وبلطف الله لم يجرح أي من رجالنا لأن بنادقهم ورشاشاتهم ورصاصهم غير مؤثرة. لم تُصب مدافعهم أي شخص. لقد سقطت عشر أو خمس عشرة رصاصة على كل واحد من رجالنا. ولكن لم يجرح أي شخص. إن رصاصاتهم لم تخترق حتى جببهم. إن الله القدير منحنا النصر على الكفار وقتلنا العديد منهم.. وهي واحدة من أفضال الله العظيمة على الإسلام، ولا شك سيقوي دينه. لقد علمنا أن العدو قد أرسل إليك رسائل ولكنك رفضتها وقد سررنا بذلك كثيراً، ولا نعتقد أنك ستفعل ما قالوه لك، باركك الله وجازاك لحبك واهتمامك بالإسلام ورفضك التعاون مع الكفار.. نأمل بعون الله أن نرسل لك قريباً أكثر الأخبار سروراً عن الهزيمة التّامّة للكافر».

مدَّ السلطان يده اليمنى، فنهض عبد الماجد منحنياً وناوله بكلتا يديه الرسالة، أعاد قراءتها ببطء، نادى على خازن الأختام، فخرج من وراء ستار وأخذ الرسالة وختمها بختم السلطنة، ثم أعادها إليه فطواها وناولها للقائد رمضان ودْبُرَّة، فاستلمها بيديه الاثنتين وهو منحنٍ ثم استقام واقفاً وانسحب من المجلس السلطاني. تلك كانت الرسالة الثانية في غضون أسبوعين إلى ناظر قبيلة الرزيقات موسى مادبو، العدو القديم، الصديق الجديد، تدعوه موارية إلى الانضمام إلى جيش السلطان لمقاتلة الإنجليز.

انتظـرت نفيسـة بت الريف، أخـت زوجها، زينب بـت الفكي، واسـتعدت لاسـتقبالها منذ الصبـاح الباكـر، وحين جـاءت تناولتا جسـديهما بالدِّلْكَـة المعطرة، ودهنتا شـعر رأسـيهما بزيـت الكَرْكَار، وتعطرتا بخُمرَة[1] خفيفة. تركت زينب ابنها الصغير عبد الماجد مع ابنـة خاله فاطمة، وأوصتهـا أن تنتبه إليه جيداً حتـى لا ينفلت منها في شـوارع وأزقة حي القُبة الرمليـة ويضيع. خرجتا في ذلك الوقت الصباحي المبكر قليلاً، وقررتا المضي على الأقدام بدلاً من أن تستقلا عربة كَارُّو الحاج خميس المخصصة لتنقلاتهما، وكان في انتظارهما بعد إحضـاره زينـب من منزلها؛ لإيصالهـما حتى حي خـير خنقا، لكنهما تركتـاه ومضتا في طريقهما بتمهـل وتجَمّل إلى بيت الميرم حَوَّا ابنة عم السلطان علي دينار، التي دعتهما لحضور مناسبة ختان أحد أبنائها.

عبرتـا في طريقهـما سـوقاً صغيراً تؤمـه بائعات الخضـار والكَوَل والكسرة، اللاتي كنَّ منشغلات ببيع بضائعهن القليلة لزبائن بدورهم قلائـل، ومرَّتا قريباً من سـاحة دلَّالي الحمـير في الطرف الجنوبي لحي أولاد الريف، عند تلته العالية، وشـاهدتا عدداً من الزبائن يدورون حـول حمار ريفَاوِي أبيض اللون عالي الجسـد، أقـرب في تكوينه إلى الحصان، اعتلتا إحدى التلال الرملية الصغيرة التي تفصل بين شمال

1- الدلكة وزيت الكركار والخمرة من العطور النسائية المحلية في السودان.

الفاشر وجنوبها، داعب وجهيها نسيم بارد أخرجهما قليلاً من حالة الصمت التي كانت تلفهما منذ خروجهما من البيت. قالت زينب بت الفكي:

_ الناس شكلها ما حاسَّة بالحاصل يا نفيسة.

انحنت نفيسة بت الريف ومسحت بمنديل صغير ساقيها المدهونتين بزيت الكركار، من أثر الطلع الغباري الذي لصق بهما، مسحت بالمنديل طرفي حدقتيها وكأنها تثبت الكحل جيداً بهما، قالت لزينب:

_ الناس قلبها معلق بالله ومن بعده سيدي السلطان علي دينار، الناس تعرف أن سيدي أبو زكريا قادر على مقاتلة الإنجليز وطردهم، الكفار الملاعين.

مدت زينب بت الفكي يدها وأمسكت بكف زوجة شقيقها وهما تهبطان برفق من جانب التلة الرملية الآخر الذي يقود سبيله صوب حي الخير خنقا. بدت وكأنها تؤيد كلامها وإن ظهر على ملامح وجهها تعُكُّر لحظي اختفى سريعاً.

_ أبونا قال صبيان الفرتيت وخيرة مقاتلي أولاد زغاوة وميدوب تم جمعهم كلهم وطلعوا بيهم الخَلاَ للتدريب والاستعداد للدواس.

قالت زينب، وردت عليها نفيسة:

ـ جمعوا فرسان الفرتيت في جهة جبل الحلة وبرنجبيل، وفرسان الأمير ود إكرومة في الجهة التانية للطويشة، والجيش الأول في برنجيَّة، وحرس سيدي السلطان يظلوا في الفاشر لتأمينها.. سمعته من عبد الماجد.

شاهدتا من بعيد قارعي النُّقَّارة[1] والمغنين وهم يحتفلون أمام بيت الميرم حَوَّا، ومع اقترابهما أكثر كانتا تسمعان الأهازيج والأغاني الدارفورية الجميلة وهي تصدح محيلة صباح الحي بأكمله إلى جو احتفالي بهيج. شَعَّ وجهاهما بالبهجة ونفضتا عن قلبيهما هموم الحرب الآخذة في التحقُّق رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً. بدت زينب بت الفكي كالطفلة وهي تسارع الخطى للحاق بركب الكرنفال الغنائي الراقص، الذي بدأ بالدوران حول بيوت الميارم جميعهن والأطفال الصغار يتقافزون فرحين بينما النسوة يرقصن على إيقاعات النُّقَّارة المُنغَّمَة بأجساد لدنة وجميلة. تقدمت زينب ومن ورائها تمشي نفيسة بت الريف الفرحة لفرح أخت زوجها الفتية، ولأجواء البهجة التي تُظلِّل المكان.

انضمت زينب إلى جوقة النساء والفتيات الصغيرات الدائرات في حلقة الرقص، ودخلت معهن في ترديد الأغاني بعد أن صافحت بتوقير كبير يد الميرم حوَّا التي كانت تنثر قارورة عطر على رؤوس ضاربي الطَّبْل وقارعي النُّقَّارة، ورجال قلائل كانوا يطلقون أعيرة

1- الطبل.

نارية من بنادق الرمنتجون وحيدة الطلقة. اقتربت نفيسة بت الريف بدورها من الميرم حوَّا وقبَّلت يديها وهي تنحني، ثم وقفت قريباً منها وأطلقت دفعات لولبية من الزغاريد البهيجة والفتيات ينثرن الأغنيات الجميلة.

اجتمعت النسوة داخل المنزل المتسع، المكوّن من عدد من القْطَاطِي والكْرَانِيك والرَوَاكِيب[1] المبنية بشكل جميل ومنسَّق، ومقسم إلى حوشين متساويين، حَوْش[2] للرجال وآخر للنساء، هو الضّاج الآن بحركة الأميرات وزوجات الأمراء وقادة الجيش ووجهاء المدينة من مستشاري السلطان وكبار التجار، الأميرات الشابات من الميارم كُنَّ مبتهجات يتحركن كالفراشات ويحططن في كل الأنحاء واهبات ابتساماتهن وضحكاتهن المفرحة للجميع. اقتيدت زينب ونفيسة إلى إحدى قطاطي القشّ الواسعة جديدة البنيان، مزدانة الخصر بالشرائط الحمراء والورود، وعلى قمتها راية خضراء مثلثة ترفرف. أدخلتا إلى حيث وجدتا مجموعة من نساء تجار السوق الكبير، وبنات المَقَادِيم والشَرَاتي[3] وبعض الأميرات الصغيرات، كلهن كن مجتمعات وجالسات فوق العَنَاقْرِيب والبنَابِر تحت سقف قطية القش البرحة. أحست زينب بت الفكي، مثل كل

1- أسماء لمباني القش في السودان.
2- المساحة الواسعة داخل المسكن وحوله.
3- مناصب قبلية.

لقاء مشابه لهذا، بأهمية زوجة أخيها نفيسة بت الريف بين صفوة نسوة الفاشر عاصمة السلطنة، رأتهن وهن ينهضن جميعاً في وقت واحد ويقتربن منها بشوق وتوقير كبيرين ويفسحن لها صدر المكان لتجلس، وربما لتحكي في الأصل.

أدارت فتاة صغيرة ورشيقة من السّرَاري فناجين القهوة بين النسوة المتحلِّقات حول نفيسة، وهي تجيب على سؤال إحداهن بقولها:

_ كلمني أبونا عبد الماجد، أنه أمير المؤمنين في الآستانة وعد سيدي السلطان علي بمساندته ومده بالمال والرجال، وأمير المؤمنين كلمته واحدة.. والكفار الملعونين سيدي السلطان علي بغلبهم وبطردهم كان جا الدعم وإن ما جا.

تجادلت النسوة حول قدرة مدافع وبنادق جيش الإنجليز في مواجهة جنود السلطنة المحروسين بكلام الله ودعوات الفُقَرا[1] الصالحين، تعالت أصواتهن وكل واحدة منهن تحاول إثبات صحة معلوماتها حول استعدادات الفاشر ومعسكراتها الحربية للمعركة القادمة، ومن ثمّ إثبات قرب زوجها من بلاط السلطنة. زينب بت الفكي ظلت صامتة ومُنزَوية في خجل ومنكمشة وسط عدد من النسوة صغيرات السن مثلها في عنقريب[2] قصير يواجه البنبر

1_ تطلق على رجال الدين المحليين، من فقير.
2- سرير مصنوع من الخشب والحبال العشبية.

المرتفع قليلاً الذي تجلس عليه زوجة أخيها نفيسة، انتبهت للحوار والمجادلات النسوية في بداياتها فقط، ثم انسحبت متسلقة أذنيها إلى الخارج، متعلّقة بوقع أنغام الفَرَنقبيَّة وصدى ضربات النُّقارة التي تتصاعد بين كل حين وآخر تملأ المكان ببهاء الموسيقى وسحر الأنغام.. تمنت لو استطاعت التَّملُّص من جلستهن الآن والخروج للفتيات والفتيان الذين يرقصون في ابتهاج خارج حيشان البيت الكبير في الشارع، دائرين حول بيوت الميارم وحول حي خير خنقا بأكمله؛ لترقص بينهم مثلما كانت تفعل قبل سنوات قلائل، متقافزة في فرح، مهتزة النهدين، متحررة من رقابة الجسد، شعرها طليق، ضربات موسيقى النقارة الحارَّة تسابق دقات قلبها المتسارعة، تمضي بلا هدى سوى صدى الأنغام، منقادة في تَمُوسُق من حي إلى آخر، تجتاز فاشر السلطان كلها من شرقها إلى غربها ومن جنوبها إلى شمالها ناثرة ذرات الرمل والفرح، في رقص ورقص وغناء وغناء ومحبة كبيرة للحياة.

والنساء في أحاديثهن المتصاعدة متنقلات بعشوائية من موضوع إلى آخر، تاركات الحرب ومدافعها عند مبتدأ الكلام، وصاعدات بسرعة وخفة إلى تلال أسرار الرجال، ودلكة وخُمْرَة الليل، وحكايات فاضحة ترهف الآذان، في سردهن همساً لقصص سراري الأمراء الجديدات ومعاركهن الخفية مع الزوجات القديمات، وآخر تطورات قصة بِتّ المَطَر مع الفارس سيف الدين البَرتَاوِي، وفي

محاولات نبشهن المراوغة والمواربة لسير بعضهن البعض وفضح المستور من أزمات وإحباطات زوجية في تشفٍّ أمام الأخريات، وفي لحظة خروجهن الأنثوي النهائي عن مسار الاحتفال – عدا زينب بت الفكي – عبرت من باب القطية فتاة السراري الصغيرة الجميلة، وقفت قريباً من الباب وقالت لهن:

_ ستي الأميرة الميرم تاجا جاءت، وستي الميرم حوَّا قالت تطلعوا تسلِّمُوا عليها.

خرجن مسرعات ومتسابقات نحوها. وجدنها جالسة على كرسي خيزران عالٍ، عليه فِرْكَة قَرْمَصيص مُسدلةعلى جنباته. كانت تنظر إلى النسوة المتحلقات حولها مبتسمة وهن يطلقن الزغاريد وينثرن في فضاء المكان العطور ويقتربن منها منحنيات ليسلمن عليها ويقبلن يديها. بقية الميارم من الأميرات الشابات توافدن يرفلن في أبهى ثيابهن وأكمل زينتهن، تقدمن وأحطن بمجلس الميرم تاجا كطوق الورد، قبل أن يبدأ الجميع في الغناء للأمير الصغير إسحاق، الذي جيء به محمولاً على عنقريب مزركش بالرسومات والنقوش عند قوائمه، ومفروش عليه بِرْش سَعَف مشغول بنعومة تتعدد ألوانه ما بين الأحمر والوردي والأخضر الغامق والأزرق السماوي. كان مرتدياً جلابية قصيرة وعلى عنقه عقد طويل، عيناه كحيلتان وعلى جبينه هلال ذهبي، وعلى قدميه ويديه آثار الحِنّاء.

في نهار ذلك اليوم أكدت نفيسة بت الريف لكل صفوة نساء الفاشر الحاضرات حقيقة قربها من البلاط السلطاني، وحقيقة صداقتها للميرم تَاجَا؛ شقيقة السلطان علي دينار، ومستشارته الأقوى بين جميع مستشاريه. نادتها الميرم تاجا بعد تفرق النساء لإكمال واجبات المناسبة، تحدثت معها قليلاً، وطلبت منها استدعاء زينب بت الفكي، التي اقتربت منحنية وهي تسلم على الأميرة الجميلة، من ظلت تحلم بقربها منذ طفولتها وهي تسمع عن شجاعتها ورجاحة عقلها حكايات متناثرة من فم شقيقها كاتب السلطان عبد الماجد.

قالت لها الأميرة الجميلة:

_ ما شاء الله يا زينب، صرت زوجة وأماً، أتذكرك وأنت طفلة تلعبين في حدائق القصر مع الطيور والغزلان.. ما شاء الله، ربنا يحفظك ويقويك.

جلستا قليلاً معها، هي على كرسي الخيزران ذي القرمصيص وهما على شَمْلَة ملونة بالأحمر ومزخرفة بالورود البرية.. جلستا قليلاً مبتسمتين وفخورتين، ثم انسحبتا بهدوء مع عودة الأميرات الصغيرات من الميارم.

خرج الحاج عبد الماجد ود الفكي، كاتب السلطان، من المجلس السلطاني بعد انتهائه من تسطير الرسالة الموجهة إلى موسى مادبو، ناظر الرزيقات، ترك السلطان مجتمعاً اجتماعَ حرب مصغراً مع رئيس الجيش الأول أحمد ود إبراهيم، ورئيس الربع الثاني منصور عبدالرحمن، والثامن الخليل ود إكرومة، ورئيس ربع الخوشخانجية نجابو كداي. عند بوابة السور الكبير التقى بالأمير سليمان ود علي، ومقدم شريف، وهما مسرعان للحاق بالاجتماع السلطاني. تأكَّد من فحوى الرسائل التي سطرها أخيراً، ومن ارتباك الأمراء وقادة الجيش والوجوم الذي ينتاب السلطان في لحظات متقطعة؛ أن الأمر قد اكتمل، وأن الحرب لم يتبقّ لانطلاقها إلا النَّزر اليسير من الوقت.

خرج باتجاه دائري من بوابة القصر الكبرى، متحركاً صوب جهته الشرقية، مارَّاً ببيتيْ الأميريْن رمضان ود بُرَّة وسليمان علي، المتجاورين والمبنيين من الحجر، منحدراً في سيره حتى صار محاذياً لبيت الأمير حسن ود أسبل، المحاط بأكمات النخيل وأشجار السَّرو، مضى في طريقه مشتَّاً في عبوره البطيء قرب منازل الأمراء الفخيمة؛ شذا زهر الليمون المتساقط والمتطاير مع ريح العصر، التي بدأت تهب خفيفة ولطيفة، وعطر زهور الياسمين الفواح مختلطاً بعبق ورود الفل القادم من داخل حديقة القصر. مشى بتؤدة نحو مخازن الذرة والدخن وحبوب اللُّوبيا والسمسم والفول؛ المغلقة

أبوابهـا بإحـكام في هذا الأوان، تخطاها كمن يأخـذ طريقاً إلى بحيرة الرهـد ضحلـة المياه في هـذا الوقت مـن العام، عبر قريبـاً من مخازن السُّروج والتعيينات الحربية، التقت عيناه هناك بعيني القائد كتونج، أمين المخازن العسكرية، كان برفقة عدد من رجاله يحصون ويرتبون أشياء ومعدات بالداخل، مرّ دون أن يسلم عليه ماضياً في طريقه إلى البُحـيرة. صعـد الدّرج الحجـري ببطء وهو يلم عباءته على جسـده جيداً، التفت نحو القصر وأبصر لأول مرة، بحياد، شـموخه ومنعته وجلالـه وعظمة مبانيـه الحجرية العالية، بحيشـانه المتَّسـعة وأبوابه الخشبية الضخمة وأسواره المرتفعة، ومنازل الأمراء من أبناء الأسرة السُّـلطانية أحفـاد الكِبرا، وقادة الجيش وحراس السـلطان؛ ببيوتهم التـي تحيط بالقصر مـن كل الاتجاهات، كأنها شـموس تحيط بالقمر المنير. اسـتند بيديه على الجدار الصخري القصـير، وأبقى ذهنه مثبتاً هنـاك متأملاً واقع الحال والمآل، مسـتحضراً المجادلة الأخيرة ما بين السلطان علي دينار وقادته العسكريين ومستشاريه المقربين، حول ما إذا كان الأجدى حربياً وعسكرياً التحصُّن داخل المدينة وجر العدو إلى حرب اسـتنزاف طويلـة، أم الخروج إلى جيـش الإنجليز الكفرة الأنجاس وملاقاتهم خارج أسـوارها. ثلاثة من القادة والمستشارين رأوا أن يتـم التحصـن داخـل المدينة، بينما مالت كفة رأي السـلطان وبقيـة الأمـراء والقـادة إلى مشـورة ابـن أختـه القائـد ود إبراهيـم، والأمـير القائـد رمضان وَد بُـرّة، بأن تكون الحرب هنـاك عند تلال

وكُثبان معسكر برنجيَّة خارج أسوار المدينة. زفر عبد الماجد هواء القلق والرِّيبة والذكريات الحنظلية التي تنزُّ دماً من دماء حروب أم درمان.. الحرب قادمة، داخل فاشر السلطان أو خارجها، في برنجيَّة أو الطويشة أو في جبل الحلة، بلا شك هي قادمة وليستعد الرجال للأهوال والموت، والنساء للترمُّل والقهر، والأطفال للتيتُّم والحرمان.. هي الحرب.

في دكانه الصغير بسوق الفاشر الكبير، كان شيخ الصاغة محمد آدم، يدوِّن على دَفتَر اليوميات، بدقة، تفاصيل العمليات الحسابية للبيع والشراء وتصنيع المصوغات لهذا اليوم، الوارد والخارج، الذهب المشغول المعد للتسليم، والذي سُلِّم، الفضة التي وصلت بداية هذا اليوم، والتي أخذها أصحابها عند نهايته، يومية صغار العمال الذين يقضون نهارهم في نفخ الكير وفي تنظيف الذهب وتقليبه على وهج النيران وغسله بماء الزِّئبْق، عمولة معلمي الدكان المهرة من تلامذته، وهم يشكلون في فن بديع النقوش الدقيقة على أساور وعقود نسوة الفاشر الجميلات، الطلبيات الخاصة التي لا تقبل الانتظار والتأجيل من مصوغات الأميرات من الميارم، وغوايش وسلاسل زوجات الأمراء وقادة الجيش وتجار السوق الكبير. ما أحس بصديقه وصفيه عبد الماجد وهو يدخل عليه مكتئب الوجه إلا بعد أن جلس على كرسي الخشب القصير في مواجهته. أغلق دفاتر الحسابات واليوميات، ومسح يديه بفوطة من قماش الدَّمُوريّة كانت على حجره، ثم أقبل على صديقه ليحييه.

حدث محمد آدم عبد الماجد، بالرَّبط الذي حدده وزير التجارة نصر الشايقي على كل شيوخ وتجار السوق الكبير:

_ المشكلة ليست في حجم المبلغ المطلوب يا عبدالماجد، لكن في

المهلة القصيرة التي حددت لجمعه.

قال له عبدالماجد كمن يعرف كل شيء:

_ حددوا لكم أسبوعاً فقط صَاحْ؟

أجابه محمد آدم:

_ نعم، وهو ما قد يضطرنا كشيوخ سوق، إلى أن نكمل ما ينقص من الربط المحدد لكل مجموعة من جيوبنا ومدخراتنا الخاصة.. السوق واقف يا عبد الماجد وظروف كل التجار الحرفيين متشابهة في السوء.. لكن تعرف ماذا يعني عدم الدفع أو التسويف، لنا الله.

قال له عبد الماجد:

_ الظرف لا يحتمل المجادلات يا محمد آدم.. الآن قم لنذهب للصلاة.

خرجا سوياً بعد أن توضآ متجهين إلى جامع الفاشر الكبير لأداء صلاة المغرب، أخذا في طريقهما يَغشيان دكاكين التجار التي تصادفهما، يحييان هذا ويقفان مع ذاك قليلاً، إلى أن وصلا دكان السر سيد أحمد، سر التجار الجلَّابة، فاستقبلهما باشّاً أمام دكانه، حيث كان يتهيأ للوضوء، جلسا قربه وقررا أن ينتظراه حتى يتحرك ثلاثتهم صوب الجامع الكبير. التاجر الجلَّابي السر سيد أحمد، حضر إلى الفاشر من دار صباح في الشمال النِّيلي قبل عودة السلطان الأخيرة

بسنوات طويلة، أسس تجارة راسخة وذات سمعة طيبة في المدينة، واكتسب ثقة كبيرة في كل أنحاء دارفور والبلدان المجاورة، بداية من وداي إلى نيجيريا، مروراً ببانجي، وأصبح المرجع الأساسي لكل الجلابة القادمين من دار صباح للتجارة أو العمل في مختلف المهن الأخرى، إلى أن صار في مقام عمدتهم وسر تجارهم والرابط الأول بينهم وبين أبناء المدينة ومدن وقرى دارفور الأخرى، كان متخصصاً في المتاجرة بالمواد التَّموينيَّة التي يستجلبها من أم درمان عن طريق النهود، ومصر عن طريق قوافل درب الأربعين، ويصدر من الفاشر التُّمبَاك[1] الذي يستجلبه من مزارع كفوت وشَقْرة القريبة من الفاشر، إلى أم درمان، وإلى أهله في الشمال، وإلى مصر والكفرة يصدر الكَرْكَدي وريش النعام والسمسم وسن الفيل. كوَّن مع مرور السنوات ثروة عظيمة وتحوَّل إلى أحد الداعمين المهمين لخزانة السلطنة ومخازن تموينها، تقرّب من السلطان علي دينار، وتمكّن بحنكته وحكمته أن يكون واحداً من المستشارين الذين يسترشد السلطان بآرائهم في كثير من قضايا الحكم، بما في ذلك الحرب الأخيرة التي تقترب حثيثاً، وفي كافة الحروب المتتالية التي سبقتها في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، وهو المسشار الوحيد الذي وافق رأيه رأي قائد الجيش سليمان علي بضرورة التحصُّن داخل مدينة الفاشر، لا أن يخرج جيش السلطان لملاقاة الكفار خارجها. تجادل

1- السعوط.

برفق مع الأمير ود إبراهيم صاحب خطة ملاقاة الإنجليز خارج المدينة، ضرب للسلطان مثلاً بخندق الرسول صلى الله عليه وسلم حول المدينة في غزوة الأحزاب، كاد يقنع السلطان وبقية الأمراء والقادة المجتمعين بصواب رأي القائد سليمان وهو يقول:

_ سيدي السلطان علي دينار، حفظك الله وأبقاك، الإنجليز الكفرة يستعينون بالمدافع والبنادق، وهي كثيرة لديهم، في الخلاء سنكون مكشوفين ومرمى سهلاً لنيرانهم، لكن لو جرجرناهم إلى حدود الفاشر، وحفرنا الخندق من حولها وأمنَّاها بقدرة الله تعالى، سنقتلهم واحداً واحداً.. سيدي السلطان كلام الأمير سليمان كلام موزون ويقدر جيداً الأمور، نتحصَّن داخل الفاشر ونرهقهم بالطلعات الليلية من كل الجهات ونقطع عنهم خطوط الإمداد في طريق النهود.

في تلك الأمسية الحاسمة، القدَريَّة، في مسار السلطنة وعمرها، كاد القائد سليمان يثبت خطته مدعومة بالرأي السديد للسر سيد أحمد الجلَّابي، مستشار السلطان وسر التجار، كادا يقنعان السلطان علي دينار وبقية الأمراء وقادة الجيش والمستشارين، لولا الإصرار والتشبُّث المميت للأمير ود إبراهيم برأيه، وثباته على موقفه، بأن تتم ملاقاة العدو الكافر خارج حدود الفاشر، وأن تكون ساحة الوغى هي الفيصل بينهم وبين عدو الله. تمكن ود إبراهيم بحديثه اللاهب والحماسي، رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً، من أن يدفع بقية الأمراء وقادة الجيش إلى الانحياز إلى صفِّه،

ومن قبلهم السلطان علي دينار، وهو يلعب على ذات الوتر؛ الدين وغزوات الرسول عليه الصلاة والسلام، ومهابة السلطان وشجاعة فرسانه ومقاتليه المؤمنين الأشاوس، ملمحاً إلى سلطة وقوة فُقَرَا جبل كُونجِي مُونجِي الحارسة لأرواح كل المقاتلين بإذنه تعالى. قال الأمير ود إبراهيم وهو يوجه كلامه إلى السر الجلَّابي والقائد سليمان:

_ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، نحن الله معنا وهم معهم إبليس عليه لعنات الله.. لو جلبناهم إلى هنا سيدي السلطان لا نعرف كم من الزمن يمكن أن يبقوا، وكم من الخراب ممكن أن يتسببوا فيه في قرى وحلَّال[1] رعيتكم المبروكة التي على طول الطريق من النهود حتى هنا، ولا نعرف يا سيدي ومولاي مَن مِن أهالي الفاشر وسكانها الكثيرين من الأغراب وأهل البلاد يمكن أن يخون ويساعدهم بالتجسس علينا ويهد بنيان صمودنا وقوتنا من الداخل كالسُّوس أو أشد قوة.. وأنت تدرك يا سيدي أبقاك الله، ضعف النفوس وجبنها وهوانها في وقت الشدة، وتعرف حفظك الله أن أعداءك أعداء الدين كامنون كالوباء في كل مكان يتحينون الفرص، قاتلهم الله ونصرك بنصره الذي لا نصر بعده.

تحدَّث الأمير ود إبراهيم، قائد الجيش الأول، بقوة الواثق من إمكانات جيشه وقدرات رجاله، وهو يرمي إشارات خفية متشكِّكة

1- مفردها حلة، الأحياء السكنية، قد تشير إلى المكان الذي تسكنه مجموعة صغيرة.

تنمي الظنَّة والتهمة حول انتماء كل من السر الجلَّابي والقائد سليمان، الغريبين جلدة وقبيلة؛ من روح المدينة والسلطنة، زرع بذور الشك والريبة أولا في نفوس الأمراء من أشقاء وأبناء السلطان وبقية القادة العسكريين الذين يلونه، ويضعون كامل ولاءهم تحت إمرته، أوحى للسلطان بالقوة الجبارة لرجاله المدعومين بمباركة الله في مواجهة الشيطان والإنجليز الكفرة.. تحدث الأمير ود إبراهيم عن خبرة ودربة فرسانه بدروب السلطنة وجبالها وغاباتها ووديانها ورمالها، عن الكمائن والفخاخ التي يمكن أن يعدوها للعدو النّجس ومن والاه من الخونة المارقين من أبناء البلد والمصريين والترك الجبناء، أما مدافع المكسيم وبنادق البارود فحِجْبَات ومِحَاية[1] فقرا وشيوخ مْكرَكَا وجبل كُونجِي مُونجِي كفيلة بردّها وإبطالها وإنزالها ماء بارداً على أجساد الفرسان بمشيئة الله.

في ذلك الاجتماع العاصف بالمجلس السلطاني، وبتكتيك ومكر المحارب القدير، انسحب القائد سليمان من مربع موقفه الدفاعي، وانزلق صوب تأييد كامل لرأي الأمير ود إبراهيم قائد الجيش الأول، أبدل مشورته سريعاً وأكد تواضع خبراته القتالية مقابل قدرات قائده ومدربه المحنَّك، ترك المستشار السر الجلَّابي متشبثاً بدهاء التجار الأبدي، في محاولة للنجاة من مأزق التخوين والتخذيل الذي دُفع إلى الوقوع في شراكه، إلى أن وجد له مخرجاً

1- تمائم وتعاويذ لدفع الشر.

فقهياً قرَّبه من موقف قائد الجيش الأول، وبرَّر به موقفه السابق قبل أن يعلن اقتناعه التام بخطته، وتأييده الكامل لها، وهو يرى أمامه السلطان وأمراءه وقادته أجمعين ينزلون تلك المنزلة، قال سر التجار:

ـ سيدى يقول الله جل وعلا: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾، ويقول تبارك وتجلى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾. سيدي علي دينار، سلطان دارفور العظيم، حفظك الله وأبقاك ذخراً للبلاد والعباد، نعم من ورائك رجال آمنوا بربهم وزادهم الله هدى، أمثال الأمير ود إبراهيم والقائد رمضان والأمير زكريا ابنكم الشجاع، وكل أسيادي الأمراء من إخوتك وأبنائك الحاضرين والغائبين أيدهم الله وحفظهم أجمعين، ويا سيدي ومولاي السلطان علي دينار المُبَجّل، إن خطة حربية من ورائها الأمير القائد المحنك الشجاع ود إبراهيم بإذن الله النصر سيكون حليفك فيها.. سيدي السلطان علي دينار، كل ما تراه نحن رجالك، تسوقنا معك إلى حيث تريد، وإن أردت أن تخوض بنا النار تجدنا أول من يحترق بلهبها، وإن أردت أن تخوض بنا البحر تجدنا أول الخائضين، وفقك الله ونصرك وأيدك وأبقاك والله أكبر ولا إله إلا الله محمد رسول الله.

تمكـن الـسر الجلَّابي بخطبتـه العصماء تلك أن يسـحب البسـاط قليلاً من تحت قدمي الأمير القائد ود إبراهيم، وأن يستعيد إعجاب السـلطان عـلي دينـار وثقتـه من جديـد، وأن يحيّـد موقـف الأمراء والقادة ويجبرهم عـلى إعادة احترامه وتقديره حق قدره وإبعاده عن تهمـة التخوين، وأن يمـزج الغيظ بالإعجاب في صـدر قائد الجيش الأول، الذي خرج منتصراً ومنتشياً في نهاية الاجتماع.

كانـوا قد خرجـوا من جامـع الفاشر الكبـير بعـد أن أدوا صلاة المغرب جماعة في حضور السلطان وحاشيته من الأمراء والمستشارين وقادة الجيش. انسـحب مـن بينهم السر الجـلَّابي وانضم إلى موكب السـلطان المتجـه إلى داخل القصر لحضور اجتـماع ليلي خاص بكبار المستشـارين، بينـما اتجـه الاثنان صامتـين إلى بيت الحـاج عبد الماجد كاتب السلطان في حَيِّ القبة القريب من مكانهما ذاك.

قـررا أن يقطعـا هـذه المسـافة القصيرة نسـبياً من جامـع الفاشر الكبير إلى بيت الحاج عبد الماجد على الأقدام دون الاسـتعانة بحماره الرِّيَفـاوِي أو انتظـار كارو خميـس، الـذي يحـضر كل يـوم في هـذه المواعيد ليقل الشـيخ محمد آدم وبعض التجار الآخرين ممن يقطنون معـه في نفس الحي أو في الأحياء التي في طريقـه.. اختصاراً للطريق تجنبـا عبور الربـوة الرملية التي تحمل على ظهرهـا دكاكين البهارات والبصـل، ويتاجـر فيهـا بتخصُّـص أبنـاء قبيلـة البَرْنُو، وتقـع عند نهايات السـوق من الناحيـة الشرقية الجنوبية. كانـا صامتين، وشيء

من طمأنينة الطبيعة يشعّ داخلها مع التلوُّن البديع للسماء مع ذيول الشفق الأحمر وهو يتلاشى خفيفاً، وللهدوء المريح الذي بدأ يتسلل إلى فضاءات وأزقة سوق الفاشر الكبير بعد خروج رواده من التجار والعَتَّالة والصنايعيَّة والسماسرة والمشترين من الناس الضاجين نهاراً باتجاه مساكنهم في أحياء المدينة المتفرقة. عند المخرج الضيِّق من ناحية زقاق دكاكين الصَّاغة ورواكيب قهاوي البن والشاي، خرج عليهم فجأة الفارس سيف الدين البرتاوي، معتلياً جواده، ومتمنطقاً بسيفه وفي أزهى أثوابه العسكرية. حَمْحَمَ الحصان والفارس الشاب قوي الجسد يجذب لجامه ويوقفه أمامهما. قفز من على ظهر الحصان رشيقاً، وسلم عليهما بأدب واحترام كبيرين. تقدم معهما سائراً في الدرب الضيِّق راجلاً والحصان مُنقاد وراءه.

يلعب الفارس سيف الدين ضو البيت البرتاوي دوراً مركزياً في قيادة أحد كراديس الجيش الأول، تحت إمرة الأمير أحمد ود إبراهيم ابن أخت السلطان، رئيس الجيش الأول. نبوغ مبكر في رسم الخطط والتكتيك الحربي، ومهارة وفروسية نادرتين، كلها دفعت بالفارس سيف الدين ليكون أحد الفرسان المقربين من ود إبراهيم رغم صغر سنه. شارك في كل المعارك التي خاضتها السلطنة في السنوات الست الأخيرة، ضد قبائل البقارة المتمردة في أقصى جنوب دارفور، في حروب التعايشة وبني هلبة على تخوم بانجي، وفي حروب عرب الرزيقات التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، وفي الحروب الخاطفة

داخل حدود كردفان ضد عرب الكبابيش المراوغين، وعرب المعاليا والمسيرية المتّحدين ضد قوة وبطش السلطنة. اقترح خططاً حربية ذكية قادت إلى انتصارات حاسمة، لاسيما في واحد من أكثر فخاخ عرب الرزيقات دهاء، حين وجد جنود الجيش الأول بقيادة الأمير ود إبراهيم أنفسهم فجأة متوغلين إلى حدود بحر العرب، تائهين وسط الأدغال والمستنقعات، وفرسان الرزيقات كالجنّ يظهرون لهم من كل الأمكنة والاتجاهات؛ وكأنهم يهبطون من السماء، يصطادون مقاتلي جيش الفور واحداً واحداً. أمن بخطته الذكية المرسومة على انسحاب تكتيكي دائري يعتمد على قدرات قوة المشاة الفرتيت، في التنقل السريع والخفيف بين المستنقات والغابات، حقق خروجاً آمناً لأكثر من ألفي مقاتل من مقاتلي الجيش الأول، بمن فيهم الأمير القائد ود إبراهيم نفسه، الذي بوأه من يومها قيادة ربع من الكتائب، رغم اعتراض بعض القادة القدامى والأكبر سناً. في فاشر السلطان وبين سكانها، لم يكن للفارس سيف الدين ذكر يُذكر رغم فروسيته النادرة، فسيرة السلطان علي دينار، وإخوته الأمراء، وقادة الجيش الأبطال الراسخين طوال السنوات الماضية، تطغى على كل سيرة، وإن كانت لبطل شاب أنقذ جيشاً بأكمله من الموت في مستنقعات السافنَّا المطيرة، بيد أن هذه السيرة شاعت وانتشرت فجأة بين الألسن، حين تعلق قلب الفارس سيف الدين بواحدة من بنات المطر؛ جميلات السلطنة، والمبشرات بقلوب رجال الصف

الأول من الأمراء ووزراء السلطان، والمُعَدَّات في الأصل زوجات للسلطان نفسه، وفوق ذلك ابنة أحد أهم أشراف السلطنة وأمرائها. أحب سيف الدين الأميرة هادية بت الأمير آدم عبد الحكيم، ابن عم السلطان ومحتكر تجارة العَطْرُون ومورد الحديد الأوحد لمصانع السلطنة، والسلطة الغَاشِمَة في وجه مخالفيه ومنافسيه. شاعت قصة حب سيف الدين لبت المطر هادية، وذاعت حين أوشك الأمير آدم عبد الحكيم على حزِّ رأسه علناً، لولا تدخُّل الأمير ود إبراهيم وإنقاذه في اللحظات الأخيرة من بين أيدي جنود الحكيم الأشداء، الذين يعادلون كتيبة صغيرة من أكثر الرجال فَتكَاً من قبيلة الْدَادِنجا. الحكيم كان يعد بت مطره هادية لتكون زوجة للسلطان علي دينار، لا لفارس مجهول انبثق بغتة من حروب البقَّارة الكثيرة المملة، وقبائل كردفان المعادية للسلطنة، لكن أمله خاب، فابنته، ابنة المطر، أحبت الفارس المجهول.

ففي ذات هذا الدرب الضيِّق المتفرِّع من السوق الكبير الذي يقود إلى المربوع الأول من بيوت حي القبة، تسلل قبل عامين فقط الفارس سيف الدين، الليلة لم تكن شتوية باردة كما في هذا الشتاء، كان هناك قمر مضيء، وكان هناك احتفال سلطاني عظيم بمناسبة هزيمة الفرنسيين على حدود حُفْرَة النِّحَاس وبحر العرب، خرجت المدينة بأسرها لمشاهدة استعراض الجيش في ساحات احتفالات السلطنة بميدان المولد. تسلل الفارس سيف الدين البرتاوي وتأكَّد

من أنـه ترك الأمير الحكيم ومعه رجاله الأشـداء وراءه، منغمسـين في قـرع الطبول والرقـص على تنغيـمات النُّقَّارة وصفقـات الهَدّايين والحَكَّامـات[1]. اعتلى جواده وانطلق صـوب حوش الأمير الحكيم في حـي مكركا، وصل إلى هادية بت المطر في موعده المضروب بينهما منـذ ثلاثـة أسـابيع، انتظرهـا في الزقـاق الضيق ما بـين حوش بيت الحكيـم الكبـير وزرائب ماشـيته وإبله الكثـيرة، في الجهة المعاكسـة لمعسـكر مقاتليه مـن الفرتيت، وجدهـا ملتصقة بجـدار الحوش، لم يتحادثـا، أردفها خلفه في الجواد ودفعه ليركض صوب شرق المدينة نحو الطريق المنسرب إلى بلدة أَبو كَارِينكَا في دار المعاليا، لكنه لم يكن يـدرك لحظتها أنه ينطلق باتجاه طَوْق مـن مقاتلي الأمير الحكيم كانوا ينتظـرون قدومه عند أبواب المدينة الشرقية، لم يكن يدرك أن جواده المُسْرِع يقوده باتجـاه القيود الحديدية وسـن الأمير الحكيـم الذهبية وهـي تبرق في ضوء القمر.. انتهت به رحلة الهروب القصيرة داخل حفـر الظلام في سـجون الأمير الحكيـم الخاصة، يكافـح الحشرات والسـحالي والعقـارب الرمليـة، ويبرمـج رئتيه على استنشـاق غبار السّعوط وذرات الشَّطَّة الدّنقَابَة وشَرَا الضَّرابة[2].

في الـدرب الرَّمـلي القديـم المتعـرِّج، رافق الفارس سـيف الدين البرتاوي كاتب السـلطان الحـاج عبد الماجد، وشـيخ الصاغة محمد

1- الهدايون المغنون الشعراء من الرجال، والحكامات من النساء.

2- دارجة دارفورية تعني البامية المجففة، والشرا ما يتطاير منها.

آدم، تبادلوا كلمات قصيرة حول استعدادات الجيش للحرب القادمة، والإشاعات التي بدأت بالانتشار عن تحرك جيش الإنجليز والترك من مركز النهود ووصوله إلى قرية ودبندا، وعدته وعتاده من المدافع والبنادق والمحاربين الأقوياء، وعددهم الذي يبلغ الآلاف. عند زاوية شيخ التِّجَانية عمر إبراهيم صغيرة المساحة، المكونة من غرفة مطلية بالجير الأبيض ومبنية من الطين اللبن في أطراف الحي؛ ودعهما الفارس سيف الدين البرتاوي، اعتلى صهوة جواده ونكزه متجهاً صوب الشرق.. أتلك كانت مهمة استطلاع عسكرية للفارس الشاب؟ أم تراها كانت غزوة حب تتجدد صوب قلب بت المطر الأميرة هادية بت الأمير الحكيم المستحيلة؟

حين وصلا إلى البيت، وجدا نفيسة بت الريف وزينب بت الفكي قد عادتا من احتفال الميارم في حي الخير خنقا، بمناسبة ختان الأمير الصغير إسحاق، ووجدا عربة كارو خميس تقبع أمام بوابة البيت تنتظر مقدمهما، فضَّل الشيخ محمد آدم العودة مع زوجته وطفله الصغير عبد الماجد، إلى منزلهم مباشرة رغم إلحاح الحاجة نفيسة وزوجها عليهما بالبقاء حتى يتناولوا وجبة العشاء. قال لهما محمد آدم:

_ تأخر الوقت، واليوم أنت متعب يا حاج عبد الماجد، ولا بد ترتاح قليلاً.. فالغد أيضاً أمامك طويل.

نـادى زوجته زينب، التـي كانت متوهِّجـة سروراً بفعل أهازيج وأغـاني النهـار ومرأى المـيرم تاجا التـي تحبها كثيراً. حمـل محمد آدم الطفـل وصعـد إلى ظهـر الـكارو ومن بعـده صعـدت الأم، فحرك خميس اللجام وانطلق الحصان.

صلى الحاج عبد الماجد صلاة العشـاء لأول مرة منذ زمن طويل في البيت، تعشـى خفيفاً ونـادى فاطمة ابنته الوحيـدة إلى خلوته. طلب منها أن تخرج الأوراق والدّوَاية[1] والقلم وأن تجلس، سـألها عن آخر الأحداث التي دوناها معاً من كتاب (الأخبار المحكيَّة في سيرة سلطان دارفور الزّكيَّة علي بن زكريا.. رضي الله عنه وأرضاه)، فقالت فاطمة:

_ (جبل الحلة وتَعَاويذ الخشب).. أبّا الحاج.

كرّ الحاج عبد الماجد حبات مسـبحته، تأمل قليلاً، ثم طلب منها أن تقرأ له آخر ما دوناه. قال لها:

_ اقري يا السَّمْحَة، آخر قسم دونّاه من السيرة السلطانية.

اعتدلت عائشة في جلستها، أمسكت برقائق الورق جيداً وقرأت بصوت خَفيض ومتماسك، ما أملاه عليها أبوها قبل أيام:

_ (...وبعـد مـرور الخريف الثالث لأوبة سـيدي السـلطان علي دينـار المباركة مـن أم درمان بعـد مقتلة جبل كـرري العظيمة، ومعه

1- الدواة _ المحبرة.

ثلاثمائة رجل من أنصاره المؤمنين الأوفياء والأشداء ونواة جيشه القوي المنصور بإذنه تبارك وتعالى، وبعد أن استعاد بفضل الله عرش أسلافه سلاطين الكِيرَاويَّة في بلاد دارفور المجيدة، وثبّت أركان حكمه الراسخ العادل من أرض قبائل الرزيقات شرقاً، وإلى مملكة دار مساليت غرباً، وتسليم عرب البقارة وإذعانهم لقيادته من الهَبَّانيَّة والتعايشة والفلَّاتة، وإسكاته صوت قبائل الكبابيش والحمر في كردفال، وحربه للفرنسيين في حدود بلاد المساليت.. وبعد أن أعزَّه الله تعالى وأيَّد عرشه المبارك في فاشر السلطان ضد أدعياء الحق في السلطنة من السارقين والمُزَوِّرين.. حدثت كثير من المؤامرات والدسائس بإيعاز من المرتد الخائن سلاطين باشا، مفتش عموم دارفور، بغرض زعزعة عرش جلالته وإسقاط حكمه لكن هيهات.. ومن تلك الأحداث، خبر علي الجلَّة، ناظر عموم عرب المسيرية الحمر في كردفال، الذي أوعز لثمانية من شيوخ قبيلته بأن ينقضوا العهد الذي أبرموه مع سيدي علي ود زكريا سلطان بلدان دارفور، وأمرهم بسحب رجالهم مع خيولهم ومؤنهم وعتادهم الحربي من كراديس جيش السلطان المرابط في الثغور حماية لأهل درافور وكردفال وعموم السودان من المسلمين، وهكذا دون سابق إنذار انكشف صدر جيش السلطنة الدارفورية المرابط في حدود كردفال، وأصبح سهل المنال أمام جيش الكفار من الإنجليز ومعاونيهم المارقين من الترك وبقايا جيوش دراويش المهدي المهزومين.

وفي يوم الثالث عشر من ذي القعدة 1320 هجرية دخلت إلى بلاط السلطان مرتاباً، بعد أن جاءني آدم جفال خادم السلطان الخاص، وأخبرني بأن سيدي وسيده السلطان يريدني أن أمثل بين يديه الآن وعلى الفور. دخلت المجلس ووجدت سيدي السلطان علي ود زكريا أعزه الله، متربعاً على عرشه السلطاني، في كرسيه الملوكي، المُزَيَّن بالذهب الخالص والفضّة عند مقابضه وأرجله ومسنده الأعلى، والمُبطَّنة وسائده بريش النعام وريش الريدة، ومفروشة بالحرير والسُّنْدُسِ، وكان سيدي أعزه الله، يضع عمامته البيضاء بجوهرها ذي الزبرجد القبرصي بلونه الأخضر الخاطف للأبصار، ويرتدي حُلَّة من الحرير الدمشقي ومن فوقها عباءة موشاة بخيوط الذهب، وكان من عينيه يشع غضب الملوك وهيبتهم، وحوله يجلس قائد الجيش الأول الأمير أحمد ود إبراهيم، والوزير الأول الملك محمود الدادنجاوي، ووزير التجارة بشير نصر الشايقي، جميعهم في لباس الحرب ودروع الدواس، سيوفهم في أغمادها، وطبنجاتهم ظاهرة للعيان، يجلسون وأبصارهم مخفوضة على شمال السلطان، أما عن يمينه فكانت تجلس على كرسي من خشب المهوقني الصقيل، مغطى بالإِسْتَبْرَق الوثير الأميرة الميرم تاجا، أخت السلطان ومستشارته الأولى ولسان السَّلْطَنَة الذي لا يُرد له كلام، وعلى محياها الجميل آثار الغضب والغيظ الكظيم.. اقتربت منحنياً من كرسي سيدي ومولاي السلطان علي ود زكريا،

حييتـه بتحية الإسـلام وما يليق بملوكيته وبقيت منتظراً، أشـار عليَّ بالجلوس في موضع أعمالي، فتوجهت نحو دواتي وقلمي وأوراقي.

نـادى سـيدي عـلي ود زكريا عـلى خادمه جفـال، فأتـى مسرعا وانحنى بين يديه. فقال له السلطان:

_ اكشف يا جفال الغطاء عن أسحار وتعاويذ هذا الشيطان الرجيم.

حينهـا انتبهت لوجود منضدة دائرية قصيرة القوائم وعليها صرة قـماش ملفوفة بإحـكام، اقترب منها خـادم السـلطان جفال، وحل عقدتها سريعاً ثم حملها بين مقبضين خشبيين وعرضها أمام السلطان والأمـيرة الميرم تاجا أولاً، ثم دار بها على قادة الجيش الجالسـين على يسـار المجلـس السـلطاني إلى أن مرَّرها أمام نظـري خطفاً فأبصرت جلـوداً حيوانية مُهترئة الأطراف وقصاصـات أوراق صفراء أقرب إلى التمزيق وقطعاً خشـبية متشققة ومحروقة الأجناب، وكلها عليها آثار تراب أسـود وبلل وتفـوح منها عُفُوْنة، ومَشـكول عليها رموز التعاويذ والطلاسم السحرية والأشكال الشيطانية والعياذ بالله. قال سيدي السلطان:

_ هذه الأسـحار والطلاسم وجدت في منزل الخائن المدعو عثمان عبـد الرحمـن، في بيتنـا ببلدتنا ومعسـكرنا بجبل الحلـة، صنعت كلها لـلإضرار بي، واسـمي مكتوب عليها كلها.. وكـذا عثر جنودنا هناك على جثث ثلاثة عشر من خيرة الرجال قتلهم الخائن ودفنهم في منزله.

التفت بوجهه الوضيء إلى الأميرة الميرم تاجا، فنهضت من على كرسيها كأنها فارس بمائة من الرجال وقالت:

ـ سيدي ومولاي السلطان علي ود زكريا، بعد السماح واستئذانك بالكلام، والمشورة، ابعثوا فوراً الأمير آدم علي إلى هناك ليكون قائداً وينوب عن جلالتك في حكم بلدتكم ومعسكركم بجبل الحلة، ومُره أن يأتي بالخائن عثمان عبد الرحمن مكبلاً ذليلاً ليُزجّ به في السجن عقاباً على تطاوله وكفره وإجرامه.

أمّن سيدي السلطان بابتسامة رضا على كلام الأميرة ومستشارته الميرم تاجا متبوعة بإيماءة من رأسه وهو يشير بأطراف أصابعه إلى القائد الأمير آدم علي، فنهض هذا من مكانه قابضاً على سيفه، ثم انحنى وهو ينسحب إلى الخارج.

جلست الأميرة الميرم تاجا على كرسيها السلطاني الوثير، حلَّ صمت لدقائق قبل أن يشير السلطان إلى قائد الجيش الأول ود إبراهيم ويأذن له بالكلام، فتكلم ود إبراهيم:

ـ سيِّدي ومولاي السلطان علي ود زكريا، حفظك الله وأبقاك ذخراً للبلاد والعباد من المسلمين.. لقد تنكَّر ناظر قبائل المسيرية الحمر بكردفان علي الجُلَّة لعهوده معك وخان ميثاق الأمان والسلم الذي وهبته له ولقبيلته، سيدي السلطان علي دينار لقد أَلَّب الشيخ الماكر علي ود الجلة ثمانية من شيوخ قبيلته المراوغين فسحبوا رجالهم

من بين مقاتلينا ومعهم خيولهم وأسلحتهم دون سابق إنذار، وتركونا هكذا بَغْتَةً عرضة للهجوم من المتربصين بسلطانك من الكفرة والمارقين وأعداء الدين، ولولا مخافتهم قوتك وجبروتك سيدي السلطان لهاجموا رجالنا في الحدود وحدثت مشاكل كبيرة، أبقاك الله ناصراً للضعفاء وحامياً لحمى الإسلام.

في هذه المرة نهض سيدي ومولاي السلطان علي ود زكريا من على كرسيه، ونهضت وراءه الأميرة الميرم تاجا، ثم نهض الأمراء والقادة العسكريون، ووقفت أنا كما الآخرين. أشار إليّ أن أجلس فجلست وأمسكت قلمي وغمسته في المحبرة، وفردت الأوراق، فأملاني الكلمات:

ـ «من السلطان علي دينار إلى علي الجلة، نائبنا على قبائل المسيرية الحُمر في كردفان. بلغني اليوم أمر المشايخ الثمانية وما فعلوه بأوامر منك، وعرفنا بأمر رجالكم الذين انسحبوا من معسكر جيشنا بخيولهم وسلاحهم.. إنني آمرك الآن يا علي الجلة، أن تأمرهم بإعادة الرجال والخيول في الحال وإلا سيكون في انتظاركم أشد العقاب. ووالله فإن رجالي مع هطول الأمطار سينقضون على داركم ويدمرونها. وإننا لا نثق فيكم بعد أن تصرفتم كالأوغاد، لذا فلا تفكروا في أنكم سوف تهربون من غضبي، لأن نتائج نذالتكم ستعود إليكم بإذن الله، اتلُ هذه الرسالة على شعبكم وإذا استجبتم لها فكل شيء سيكون حسناً وإلا فسترون صدق تهديداتي».

انتهيت من تدوين الرسالة، وقمت من مكاني وبيدي رقعة الورق التي دونت عليها، اقتربت من كرسي العرش، وقدمتها إلى سيدي ومولاي السلطان علي ود زكريا، فأخذها مني وأعاد قراءة كلماتها سريعاً، ثم مدها إلى خازن الأختام، الذي كان يجلس بعيداً في ركن قصي من المجلس السلطاني مخفياً بستار، فأخذها وختمها بختم السلطنة ثم أعادها إليه، فطواها جيداً ودفع بها إلى قائد الجيش الأول ود إبراهيم:

_ أعلمني بماذا أجاب.

قالها ثم انسحب هو ومستشارته الأولى الأميرة الميرم تاجا إلى داخل القصر، وتركانا قابعين في المجلس السلطاني.

أما حروب قبائل عرب الكبابيش الماكرين في كردفان فدامت في البداية عامين لم يخرجا عن المناوشات والغارات المحدودة، حتى خبروا قوة ومنعة جيش السلطنة، فركنوا إلى هدنة مضللة لا تشبههم، فهم مجبولون على الغارات والقتال وخيانة العهود، إلى أن جاء العام 1334 هجرية فتحرك نفر منهم كبير، يقودون إبلهم المقاتلة ويعتلون صهوات جيادهم المدربة على السلب والنهب وقطع الطرق والهَمْبَتة، كمنوا لإحدى القوافل السلطانية، وهي عائدة من الكفرة الليبية محملة بالبضائع والسلاح الذي كان جيش السلطنة في أشد الحاجة إليه لمواجهة جيوش الكفار والمارقين المتربصين بحدود

البلاد. كمن رجال الكبابيش بإبلهم وخيولهم للقافلة عند جبل عطرون وهاجموها بليل قبل وصولها إلى بلدة مليط، قتلوا حراسها أجمعين ونهبوا بضائعها واستولوا على شحنة السلاح، المكونة من مائة وثمانين بندقية وعشرين صندوق ذخيرة، مرسلة من سيدي ومولاي أحمد السنوسي إلى سيدي ومولاي السلطان علي دينار، كما استولوا على ثلاثين من الإبل الأصيلة. وحينما واجه سيدي السلطان ناظرهم علي التوم بجرمهم المشين أنكر الأمر بتاتاً ونسبه لمجموعات الهمباتة من قطاع الطرق نافياً علاقتهم بقبيلته، ورغم أن كل القرائن والشواهد كانت تدين رجال الكبابيش وناظرهم ود التوم، بيد أن سيدي السلطان برهم بحلمه وكرمه الكبيرين لما رأى من رعبهم وذعرهم وندمهم البائن، فتغاضى عن أمرهم الجلل في سبيل أن يعم السلام حدود أرض دارفور وكردفال، وأن يتفرغ سيدي المُعظَّم لمعركته الكبرى ضد الكفار الملاعين...).

انتهت فاطمة من قراءة الفقرة الأخيرة من آخر جزء خطَّته في كتاب (الأخبار المحكيَّة في سيرة سلطان دارفور الزكيَّة علي بن زكريا.. رضي الله عنه وأرضاه)، الذي دونته إملاءً عن أبيها الحاج عبد الماجد الفكي إبراهيم كاتب السلطان، على مدار ثلاث سنوات، فلما فرغت من الكتابة نظرت إليه ووجدته مُغمض العينين متكئاً بظهره على الحائط الطيني وكأنه في غفوة قصيرة، بدا لها كأنه نائم. بقيت صامتة لهنيهات وهي تحدق فيه إلى أن سمعته يقول لها:

ـ خذي القلم يا فاطمة واكتبي.

وضعت الأوراق على سَانِد الكتابة، وأمسكت بقلمها بعد أن غمسته في الدواة، وانحنت بجسدها إلى الأمام لتكتب:

ـ (يوم المحفل الجليل:

وفي العام 1322 هجرية قطع الإنجليز الكفار ومعاونوهم الخونة من المنافقين من أبناء البلد طريق الحج المؤدي إلى بيت الله في بلاد الحجاز، وسببوا مشاكل شديدة لمن أراد أداء الفريضة في ذلك العام، وأرهبوا أصحاب القوافل المسافرة في طريق درب الأربعين، والمسافرين عن طريق أم درمان في سكك الضعين ومركز النهود والأبيض حتى البحر في ميناء سواكن، فالتجأ الناس من المؤمنين إلى حمى سيدي السلطان علي دينار في الفاشر وشكوا له حالهم وتعطل أعمالهم وحرمان حجاج بلدان دار ماسليت ووداي وكنو من رحلة الحج السنوية وأدء الفريضة الرّبانيَّة.. سيدي السلطان علي بعد أن استمع لشكواهم، اجتمع في ذلك العام داخل قصره بمفتي عموم السلطنة ورئيس القضاة إدريس الدنقلاوي، وقائد الجيش الأول ود إبراهيم ومبعوثه الخاص إلى أرض الحجاز الشيخ محمد سيماوي، وبعد مجادلات طويلة قرروا استمرار رحلات قوافل الحجيج متوكلين على الله ومن بعده سيدي السلطان علي، على أن تكون تحت حماية وحراسة فرسان السلطنة المغاوير، دون خوف

مـن جيـوش الإنجليـز الكفـرة أو الهمباتـة والصعاليـك مـن قطاع الطرق. وكلف سـيدي السـلطان وزير التجارة بشير نصر الشايقي، كـما في كل عام بإعداد ونَسْـج كسـوة الكعبة حتى تكـون جاهزة في موعدهـا المعلـوم مـن شـهر ذي القعدة، حتـى يتم إلحاقهـا بالصرة والمحمل المتوجه مع الحجاج إلى مكة المكرمة، لكساء الكعبة المشرفة ولتقديـم المسـاعدات العينيـة والمالية لأغوات مكة؛ خـدام بيت الله الحـرام. وفي اليـوم المُحدد لتسـليم أنصبة كل قبيلة مـن قبائل أرض دارفـور المعطـاءة، ولأخذ المسـاهمة الشـخصية مـن كل شرتاي من شراتي الديـار، وكل عمـدة من عمد البلـدان والفُرْقَان، وقبلهم كل ناظر من نظار القبائل الكبيرة؛ في هذا اليوم المبارك المشـهود، خرجنا مـن القـصر أوان العـصر في موكـب سـيدي السـلطان عـلي دينار، ورئيس الوزراء الملك محمـود الدادنجاوي، وقاضي القضاة إدريس الدنقـلاوي، ورئيس الجيش ود إبراهيم، ووزير التجارة بشـير نصر الشايقي، وشيخ التجار تاج السر الجلَّابي، وشيخ الصاغة محمد آدم، وجمهرة من أمراء السـلطنة وقادة الجيش وفرسانه الأشاوس، وعدد كبير من وجهاء المدينة والمدن والحلال القريبة، ومن الجناح الحريمي للقـصر خرج موكب الميارم وفي مقدمتهن الميرم تاجا، والميرم حوّاء، وفي حاشـيتهن تسـير زوجات الأمراء وقادة الجيش وزوجات كبار المستشـارين والتجار ووجهاء المدينة، وبينهن تنبض الحياة في حركة بنـات المطر الباهيـات وجـواري وسراري القـصر الجميلات وهن

يُحِطن بالموكب الحريمي العظيم، كن سيأخذن أمكنتهن بجوار مواقع رجال السلطنة ويشاركن في الاحتفال بتسلم خيرات المحمل وإعداده وتزيينه مثلهن مثل الرجال، لا فرق. كان السلطان العظيم يتقدمنا مسبلاً على جسده أجمل ثيابه الملوكية، ممتطياً صهوة جواده اللَّصدا بلونيه الأحمر والأسود ودكنته البهية، وسيفه الباتر بمقبضه الذهبي يتأرجح عن يساره، وجفال خادمه الأمين وخازن أسراره، يهرول تحته، والفارس سيف الدين البرتاوي، يقود كتيبة حراسه وهم يهدّون الأرض هدّاً بضربات أقدامهم القوية، أما نحن فكان بعضنا يركب حصانه والآخر حماره وآخرون يمشون على أقدامهم عجلين وفرحين، وكنت منهم. ساحة المولد الكبير، زينت بالرايات الخضراء والأعلام المزركشة متعددة الألوان، وقسمت بتخطيط بديع بإشراف مباشر من الوزير بشير نصر، يراعي حجم القبائل، لتكون كل جماعة في موضعها وأمامها ما تشارك به في تكوين المحمل وتهيئة الصرة، ورصت في أطرافها – أي الساحة – أزْيَار الماء الكبيرة، وذبح الجزارون الذبائح مجاناً ووزعت على الفقراء والمساكين لحوم الضأن والإبل والأبقار، في حين أرسلت الميارم الأميرات منذ ثلاثة أيام الأصناف المتنوعة من الأطعمة الشهية لكل من عبر ساحة الاحتفال، أو جاء مشاركاً بعطاء. تجمع الناس في ذلك اليوم من كل بقعة في أرض دارفور المباركة، جاءوا لتمجيد دينهم ولشكر سلطانهم، متحلقين في حلقات يمدحون النبي محمداً

عليه أفضل الصلوات والتسليم، وينشدون أناشيد تحكي بطولات وسيرة سيدي علي الله ينصره. قُرعت الطبول والنحاس معلنة بداية الكرنفال مع مقدم الموكب السلطاني الكبير، رقص صبيان الفور والماساليت وقفزوا نحو السماء منتشين وفرحين، زغردت نسوة الفاشر والحلال والفرقان القريبة مبتهجات بمرأى سيدهن وحارسهن المليك، نُثرت العطور الفواحة في فضاء المكان ووزعت التمور والحلويات على الأطفال والصبيان. ترجَّل سيدي السلطان وجفال مُنحنٍ لاستقباله، تقدم صوب صرة المحفل التي كان حولها يتحلق النظار والعمد والشراتي وشيوخ القبائل من عموم دارفور وبعض كردفان وحتى كنو البعيدة. كانت المساحة شاسعة تستوعب النعم السلطانية المعروضة في بهاء تسر الناظرين. تقدم سيدي أولاً وتفقد صرة الحبوب؛ الذرة والدخن وعيش الريف واللوبيا والسمسم، والفول السوداني.. كان الإشراق يشع من وجهه وهو يلامس بيديه الطاهرتين حبوب الدخن الصفراء ويردد على مسامع الشراتي والعمد: «باركم الله، باركم الله»، ثم تقدم سيدي ونحن من ورائه نسير لمُعَاينة أقمشة الدمور والزراق والمحاصيل والبضائع الأخرى: سن الفيل، وريش النعام، وعصا الأَبَنوُس، ومحصول الكركدي والعَرَدِيب والصمغ العربي، وعسل أُم دَافُوق الأصلي وغير ذلك كثير.. في ذلك اليوم تغنت بنات المطر بأمجاد سيدي السلطان علي دينار وهن يطفنَ مع الميارم حول حلقات المحفل

المعدة للرحيل، شاركت نُقَّارَة الفور في مهرجان الفرح ودقت طبول الذِّكر والسلطان يتنقل من دائرة إلى أخرى وابتسامته المشرقة تضيء المكان. في المساء حُمِلت الهدايا والبضائع على ظهور جمال قافلة درب الأربعين، ستون جملاً بالتمام رُفعت وحُملت على ظهورها هدايا سيدي السلطان وبضائع سلطنته، محمله السلطاني وعطيته الربانية إلى بيت الله وكعبته المشرفة في مكة المكرمة.. ثم بعد أن صلينا مغرب وعشاء ذلك اليوم في ساحة المولد بإمامة مولانا وسيدنا السلطان علي ود زكريا، وبعد أن أضاء خدم وعبيد السلطان المكان بالمشاعل والفوانيس، وحمحمت خيول الفرسان دائرة من حولنا وحارسة، خطب سيدي السلطان في حجيج ذلك العام، وكانوا بالمئات من كنو ووداي ودار مساليت، وبانجي وديار الفولاني، ومن أرض السلطنة الدارفورية. قال لهم سيدي، الإمام التقي الورع: «واعلموا، يا عبيد الله المؤمنين، أن كل تكاليف ومصروفات رحلتكم مدفوعة من عبد الله وخادم بيته سلطان دارفور علي ود زكريا محمد الفضل، واعلموا أن جند السلطنة الأشاوس سيرافقونكم ويحمونكم إلى أن تصلوا إلى ميناء سواكن أو مصر، واعلموا أن بلاد الإسلام والمسلمين ستظل إلى أبد الآبدين محمية برجال الله الحارسين والحافظين لدينه، ولن يدنسها الكفار الملاعين وإن دخلوها وعاثوا فيها فساداً.. يا أيها المسلمون الحافظ الله والراعي هو جلّ وعلا، توكلوا عليه وسافروا إلى حجكم وادعوا لإخوانكم معكم وأنتم في البيت الحرام».

بعد أن فارق الفارس سيف الدين البرتاوي رفيقي الدرب كاتب السلطان الحاج عبد الماجد وشيخ الصاغة محمد آدم عند مدخل حي القبـة، اعتلى جواده واتجه شرقاً وكأنه سيسـلك أحـد الدروب التي تقود إلى معسكرات برنجيَّة، لكنه دار دورة كاملة حول التلّة الكبرى التـي تحمل ثلاثة من أحيـاء المدينة الكبيرة، وخـرج بعدها إلى خلاء نَقْعَة مزارع كفوت ثم نزل في الدرب الذي يقود إلى بلدة الطويشـة، قبـل أن يخرج منه ويعود مرة أخرى إلى نقعة مزارع كفوت ويسـلك بعدهـا الطريق الذي يصـل به إلى مدخل المدينة مـن جهتها الجنوبية عند حي مكركا. كان الجواد الأصيل ينطلق بأقصى سرعته في حالك ذلك الليل الشتوي البارد، وكان مدرباً على السير في الطرق الواسعة والدروب العشبية الصغيرة والمنعرجات الرملية المتشابكة والمتداخلة وبين الأشـجار الغابية الفارعة، ويعرف جيداً إلى أي مكان يريده أن يتجه فارسه البرتاوي.. في خروجه المضلل هذا، لم يكن سيف الدين بعيـداً عن المخاطـرة والمغامرة التـي يخوضها للمرة الثانية في سـبيل لقـاء بت المطر هادية، كان يـدرك أن أقل خطأ أو حتى هفوة صغيرة سـتعرض مصـيره هذه المرة لاختبـار الموت المحتوم وليس السـجن والتعذيـب مثلما حـدث في المرة السـابقة، كما يدرك جيداً أن رئيسـه ورئيـس الجيش الأمير ود إبراهيم لن يتقدم لإنقاذه مرة أخرى، بعد أن عاهـده عـلى الابتعاد عن طريـق بت المطر ووالدهـا الأمير قاسي

القلب الحكيم، لكن مُنَاجَـاة القلب وثِقل الحنين يدفعانه للمغامرة، بـت المطـر هادية تعنـي له الحيـاة، وإن لم يلتقيا اليوم وهـو ماضٍ إلى حـرب لا يعـرف منتهاهـا وإن كان سـيعود منهـا حيا أم ميتـاً؛ إن لم يقابلهـا هذا اليوم سـيعني ذلك هزيمته واندحـاره قبل خوض أولى منازلاتـه في هذه الحرب اللئيمة، انكسـاره وتضعضعه قبل مواجهة مقاتلي جيش الإنجليز الكفرة.

خَبَبـاً انطلق به الحصان عائداً من جديد صوب مدخل المدينة من جهتهـا الشرقية، مرتفعاً به فـوق تلة حي مكركا في محاذاة حي دبة أم شجيرة، قبل أن يهبط به ببطء حذر إلى أكثر مناطق المدينة انخفاضاً، قريباً من معسكرات تدريب كردوس[1] قوة حراسة السلطان، حيث يعسـكر حراس السلطان من أبناء قبيلة الفرتيت داخل مباني حوش (بيـت الدواس الكبـير) في عزلة تدريباتهم القتالية العنيفة المسـتمرة بلا توقف، في خفاء عن أعين المتلصصين وفضول المتجسسين. مضى الحصان بصاحبـه في طريق رملي متعرج ينأى رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً عن مباني حـوش الدواس الكبير، إلى أن دخل به أجمة أشـجار شـوكية قصيرة عبرهـا مشـياً، ثم انطلق في طريقه صوب المدينـة التي بدت تتراعش في أعلى تلالها بعض الأنوار المضاءة، مشيرة إلى سهر طويل في بيوت وأماكن متعددة من مدينة الحرب القادمة. بعد ساعتين – ربما – كان الفارس سـيف الدين البرتاوي يترجـل عن حصانه ويقف قريباً من

1- الكردوس الطائفة العظيمة من الخيالة، جمعها كراديس.

بيت شيخ الصاغة محمد آدم منتظراً في قلق بت المطر هادية، متوقعاً حضورها برفقة فاطمة ابنة كاتب السلطان عبد الماجد، التي كانت تكتب لحظتها ما يمليه عليها أبوها من أخبار (سلطنة علي دينار)، بينما بت مطره هادية تمسح – في تلك اللحظة – دموعها المَذرُوفة بعد أن أمر والدها الأمير الحكيم حراسه القُساة بألا يخرج أحد من البيت وهو غائب وإلا طارت الرؤوس جميعها.

بقي الفارس سيف الدين البرتاوي، في برد تلك الليلة ممسكاً بلجام جواده إلى أن سمع صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر. ظل واقفاً في مكانه يقلب مسارات حياته وتقلباتها منذ بروزه بعد معركة الرزيقات الكبرى على حدود بحر العرب، بقدراته الفَذَّة على التمويه والمراوغة إلى أن خرج بفرسان السلطان من كماشة موت محقق بعد تمكن مقاتلي الرزيقات من جرجرتهم إلى الغابات الكثيفة وبدأوا مناوشتهم من كل الاتجاهات. تأمل رحلة صعوده العظيم من مجرد جندي مجهول في كراديس الفرسان الراكبة إلى فارس مقرب من رئيس الجيش ود إبراهيم، إلى أن ذهبت به الترقيات سريعاً ليكون قائداً على أحد كراديس فرسان الجيش الأول، وأن يتم اختياره على رأس الحرس الشخصي للسلطان علي دينار في حال وجوده بالمدينة. تذكَّر – في وقفته تلك _ المعارك الكثيرة التي خاضها في السنوات الست الأخيرة، النزاعات في حدود كردفال مع قبائل الحمر والكبابيش وعرب المعاليا، حروب إخضاع القبائل المتمردة في دار

الصعيـد، وحروب الشـمال الصحراوي مع عـرب الزِّيَاديّـة الأَبَّالة وفـزان ليبيـا، مسـاهمته العظيمـة في إخضاع عمد ومشـايخ وشراتي الإقليم الشاسـع وإجبارهم على دفع الضرائب والإتاوات السـنوية مـن البهائـم والمزروعـات والحبوب، ومَـدّ الجيش بالفرسـان وقتما احتاج ذلك، والتسـليم التام لسـلطة السلطان علي ود زكريا.. تذكر قوتـه وجبروتـه في قهر الرافضـين والمتمردين، تقتيلهـم وتشريدهم وإذلالهم بتقديمهم للمحاكمات النَّاجزة في محكمة فاشر السـلطان.. تذكر الفارس سيف الدين في ظلام هذه الليلة منتظراً حبيبة لن تأتي؛ تضعضُـع هـذه القوة وهذا الجبروت سـاعة سـقط بين فكي كماشـة جُنْـد الأمير الحكيم، حين هبط به الأمـير القاسي من فضاءاته الحالمة وهـو يحلق بأجنحة وهم اقترانه بابنته بـت المطر هادية الأميرة. قيود الحديد التي أدمت سـاعديه لشـهور وتذوقه كأس الذُّل الذي أذاقه من قبل للآخرين في سـجون السـلطنة المظلمة لسـنوات وسنوات، اليـأس وهـو يحفـر في جسـده في تـأنٍّ وصبر، نـداء المـوت والتعفُّن البطـيء بين جوالات السـعوط والضرابة والشـطة والـشرا.. تذكر الفـارس العاشـق، خروجه بعد مغـرب يومه ذاك مرافقاً للسـلطان في إحـدى جولاتـه القصيرة داخـل حدائق القصر، كانـا بمفردهما، السلطان يبدو سعيداً بين أشـجار الفاكهة والورود الزكية، وغزلان وأرانب حديقته تتقافز من حوله في الممرات العشـبية المخضرة، كانا يسـيران وجنة القصر الخضراء تفصلهما عن عوالم السلطنة الصاخبة

في الخارج، السلطان يتقدمه تفصل بينهما مسافة ثابتة لا تعدو العشر خطوات، عبرا حديقة أشجار المانجو والباباي باتجاه حديقة البرتقال والليمون واليوسفي الباذخة، وهناك كانت تجلس على مقعد حجري الأميرة الميرم تاجا، مضى السلطان نحوها وسيف الدين يمشي من ورائه، وقبل أن يصلا إليها انبثقت من بين الأشجار سبع من بنات المطر الجميلات وهن يتضاحكن متقافزات وبين أيديهن صغار الأرانب والغزلان؛ فُوجئنَ بالسلطان أمامهن فجلسن على الأرض دفعة واحدة، كان السلطان يضحك وهو يعبرهن صوب مستشارته الأميرة، وكان سيف الدين يقف مُتسمِّراً مأخوذاً بجمال البنت التي تحتضن بين ذراعيها غزال أُمْ تِكْدِم صغيراً جميل العينين، كانت هادية بت المطر؛ الأنثى التي قتلت القلب وأعادت خلقه، وحولت ممرات ودروب القصر الداخلية إلى مساحات للعشق والوله لفارس شاب ذاق طعم الغرام لتوه. مضى عام قبل حدوث الواقعة وضياع الحلم وتشتته.. ممسكاً بلجام الجواد استدعى فارس الدواس الأول سيف الدين البرتاوي حياته الماضية وكأنه سيموت الآن الآن.. أمه حواء الحسين وهي تربطه على ظهرها وتهرول به من مزارع قرية مهاجريّة البعيدة إلى بلدة خزّان جديد بعد أن لدغه ثعبان أبْ دَفَّان أثناء اشتغالها في تنظيف مخمّسات الفول استعدادا لموسم الأمطار.. اهتزازه الموجع على ظهرها وهي تجري به بين الأشواك والشجيرات الصغيرة وفي خيران الماء الضحلة، غيابه عن الوعي

وانسرابه متدهوراً في بحر الظلام، وحواء تجري به وتجري، إلى أن سلمته للفكي إساغة في خزان جديد ليداويه من سموم موته المراوغ ويتولاه برعايته منذ ذلك اليوم إلى أن التقطه كشافة الجيش السلطاني في إحدى جولاتهم التفتيشية الكثيرة لجمع الرجال لحروب السلطنة التي لا تنتهي. معركة وراء معركة ونصر من وراء نصر إلى أن صار ما صار، ووقف الآن هذا الموقف المُتداعي في انتظار بت مطر بهية لا تأتي. كان أذان الفجر ينادي للصلاة. شَدَّ سيف الدين اللجام وتقدم حصانه ماشياً على قدميه صوب جامع المدينة الكبير. فكرة وحيدة راودته وهو يصلي في الصف الثاني مُحَاذياً لشيخ الصاغة محمد آدم، وأمامه مباشرة يقف الأمير ود إبراهيم والأمير زكريا ابن السلطان علي دينار، ورئيس القضاة إدريس الدنقلاوي، فكرة وحيدة راودته وإمام السلطنة الشيخ السيماوي يتلو: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهَّ)؛ لكنها فكرة وحيدة راودته: "سنخسر الحرب يا سيف الدين، وستموت هناك في رمال أرض برنجيَّة، ولن تعود إلى فاشر السلطان مرة أخرى إلى الأبد".

(3)

كشَّاف مركز النهود

«لقـد نَمَا إلى علمـي أنكم أينما وجدتم أي شـخص ينوي القدوم إلينا أو أي فرد من شعبنا عائداً إلينا تفتشونه بدقة وتقتلونه بالأسئلة وتؤخرونه في الحَجر الصحي، إنكم بهذه المعاملة تزعجون وترهقون الناس وتجعلون حياتهم صعبة. إنني لا أجهلُ ما تفعلونه، لذا فلستم في حاجـة إلى إخفائـه عني. من الأفضـل لكم أن تبقـوا هادئين وأن تكفُّـوا عنـي مثل هـذه الأعـمال التي لا تجلب لكم سـوى المشـاكل والـضرر، إننـي لا أضمر لكـم أي شر كـما لا أريـد أي شرّ لي. وإذا لم تكفّـوا عن مثل هذه الأمور فوالله وعزَّته سـأحرمكم من البقاء في النهود.. هذا ما أردت قوله لكم"

علي دينار إلى مفتش غرب كردفان – نوفمبر 1915م

جاء سـيدي السـلطان علي دينـار منذ ثلاثـة أيام لتفقُّد معسـكر الجيـش في جبل الحلة، طاف خلالها برفقة الأمير ود إبراهيم والقائد الخليل ود أكرومة والأمير رمضان وَدْ بُرَّة على ثكنات المقاتلين الجدد من فرسـان السواري والمشـاة، وتفقّد اسـتعدادات الجيش للحرب القادمـة. بدا لي حينهـا؛ وتلك أول مرة أراه فيهـا عن قرب وأحادثه

وجهاً لوجه، متحمِّساً وواثقاً من تفوُّقه على جيش العدو الإنجليزي، كان بليغاً وهو يخطب في الجنود ويَحُثُّهُم على الصبر والثبات في مواجهة العدو الكافر، وبما أنني لم أكن أنتمي إلى القوات المُقاتِلة، أن كانت من السواري أو المشاة، فلم يسمح لي في تلك الأيام الثلاثة بالطواف مع الوفد السلطاني، وكنت أراهم من بعيد والسلطان سيدي علي ود زكريا يبدو مُتحزِّماً بلباس الحرب، يراجع بنفسه بنادق الكرمبل القليلة بين أيدي الرجال، ويتابع بتمعُّن التدريبات التي أدخلها الضابط المصري الهارب من الجيش الإنجليزي؛ عبد الموجود. كان واضحاً لي وأنا أرقب تطوافهم من على البعد إعجاب السلطان بأنواع البيادة والتمارين العسكرية الجديدة التي جلبها معه هذا الضابط المصري من معسكرات العدو. القادة الثلاثة؛ ود إبراهيم وود أكرومة ووَد بُرَّة أعملوا في تلك الأيام الثلاثة كل إمكانات وقدرات جندهم حتى يبينوا لسيدي السلطان أن حدود البلاد مؤمنة، وألا خوف من الإشاعات التي بدأت تتحدث عن اقتراب الجيش الإنجليزي الغازي من النهود، مركز مديرية شمال كردفان. أنا المُقرئ جبريل الطاهر، ومعي ثمانية آخرون، تم اختيارنا بتمحيص شديد لنكون عيون السلطان وكشّافته في جيوب وبلدات كردفان، وعلى طول الطرق المؤدية منها إلى دارفور، لنا معرفة خبيرة بالدروب السفرية، في الصحارى والغابات، لنا أصدقاء ومعاونون في كل حلة أو قرية على الحدود المتداخلة بين دارفور وكردفان،

مظهرنا مخادع، يوحي بأننا مجرد فُقرا دراويش وطلاب علم مساكين.

في صباح يومه الرابع، وقبل أن يغادر السلطان معسكر جبل الحلة عائداً إلى عاصمة سلطنته الفاشر، طلب مُلاقاة أولى طلائعنا التي ستتوجه لاستقبال جيش العدو في مركز النهود، وترصد حركاته وسكناته من هناك، وتسعى لكشف استعداداته وحجم قواته وتجهيزاته، وتحاول أن تصل حتى إلى النوايا المخبأة في جَوْف قادته الكفرة. ناداني القائد ود أكرومة ومعي الصبي القُرْعَاني المهاجر حسين، وكنت قد اخترته ليكون مرافقي وشريكي وتلميذي في رحلتي الكشفية إلى مركز النهود، والبلدات التي في الطريق إليها. الصبي القُرعاني حسين، التقيته في مَسِيدٍ لحفظ القرآن في قرية الطويشة، كان يدرس مساء مع بقية المُهَاجرين الصغار، ويرعى الأغنام والضأن وحيداً في الصباح الباكر، كنت أقتفي أثر بعض الهمباتة النهابين ممن تطلب القبض عليهم محاكم السلطنة في الفاشر، حين صادفته يسوق أغنامه أمامه لترعى أعشاب خريف ذلك العام. سألته إن صادف خمسة رجال يركبون الجمال ويسوقون أمامهم مُرَاحاً[1] من الضأن، فأخبرني أنه لم يصادفهم وإن كان يخُمِّن أنهم ساروا في طريق الضعين، لأنه صادف عند ربوة شجر الهجليج التي يتفرع منها هذا الطريق أشجاراً مخروطة الأوراق ولمدى بعيد. لمحت في عينيه ذكاء وقّاداً وأنا أحادثه وأسأله عن أقصر طريق يمكِّنني من

1- القطيع.

قطع السكة على الهمباتة الخمسة، ويضعني أمامهم مباشرة، بعد أن أجتمع برجالي المتفرقين في الأنحاء لنواصل مطاردتهم. جلس على الأرض ورسم على الرمل خريطة دقيقة، لم يغفل فيها موقع شجرة أو تلاً رملياً أو منخفضَ وادٍ، كنت أتابعه وهو يشرح بسرعة ودربة مسالك الطريق المختصرة وشعابها، وأقرر بيني وبين نفسي أن هذا الولد الأقْرَع أصفر اللون، خُلق ليكون كشافاً. أطحنا بالهمباتة واستعدنا مراح الضأن، والإبل المسروقة، ثم عدت بعد شهور إلى قرية الطويشة وبحثت عن الصبي إلى أن وجدته في مسيد الحلة يُرتّل القرآن وكأنه مقرئ ضليع بالقراءات. أخذته للتدريب ومضيت.

دخلتُ إلى خيمة قادة الجيش، ومن ورائي الصبي حسين القُرعاني، وجدنا سيدي السلطان علي دينار يجلس على كرسي خشبي عالي القوائم، وقريباً منه يقف القادة الثلاثة ومعهم الضابط المصري الهارب عبد الموجود، جثونا على الأرض ونحن نسلم على سيدي المنصور بإذن الله. سألني عن اسمي وقبيلتي، ومنذ متى التحقت بكشافة الجيش الأول. أجبته بما يليق بمقامه. فاجأني بسؤال فقهي حين قال:

ـ هل يجوز التجسُّس على الكفَّار في حالة الحرب؟ وما حكم ذلك شرعاً؟

فأجبته بما أعرف قائلاً:

ـ قال الله تعالى في سورة النساء (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ)، وفي تفسير هذه الآية يا سيدي السلطان جوَّز العلماء التجسُّس على الكفار لمعرفة عددهم وعتادهم الحربي، حتى لا يسببوا الأذى للمسلمين ويفسدوا في أرض الله.

فباغتني بسؤال آخر في علوم القرآن، فأجبته باستفاضة بما أعرف وأعلم في هذه المجال من بحر الدِّين الواسع، بدا راضياً عن إجابتيَّ على السؤاليْن الدينيين وهو يتوجه إليَّ بسؤال آخر:

ـ من هنا حتى مركز النهود كم عدد الآبار التي يرتادها الناس لشرب الماء، وبين أيُّها تطول المسافات؟

فأحصيت له ثماني آبار، تبدأ من النهود وتنتهي داخل معسكرنا في جبل الحلة، وهي أبعدها في المسافة لأنها تفصلها عن السابعة مسافة ثلاثة أيام من السير الحثيث.

صمتُّ وأنا أحسّ بالقائد ود أكرومة يحدِّق بي فخوراً، بينما السلطان يتأملني مُتفكِّراً. تساءل:

ـ والصبي؟

قلت:

ـ حافظ لكتاب الله وخبير بالدروب وقصّ الأثر، سريع البديهة، قوي الملاحظة وواسع الحيلة عند الملمَّات.

التفت السلطان إلى الصبي القُرعاني، الذي كان يجلس هادئاً ومؤدباً، وجه كلامه إليه:

_ اقرأ آيات من سورة القارعة، يا ولد.

قرأها كاملة. فطلب منه السلطان آيات من سورة أخرى، وأدخله في امتحان تجويد قصير اجتازه بنجاح. وختم قراءاته بأهزوجة في مديح سيدي السلطان علي دينار، مما جعله معتدل المزاج، وراضياً عنا. ترنَّم الصبي الداهية:

فُقَرا شِيلُو الجَلاَلَة لِعِلِي ود زَكَرِيا

فاَطِمْة بِتّ النّبي نُور أَبُوكِ زيَّ الْقَمْرْ مَا بِنطَفِي

فُقَرا شِيلُو الجَلاَلَة لِعِلِي ود زَكَرِيَا..

في نهاية اللقاء القصير، ناداني السلطان وسلّمني رسالتين مطويتيْن وقال:

_ هذه تُسلّم للشيخ أحمد خليل الفكي، في جامع حي الطويشة، والأخرى للفكي جلالين في حي تاما، الاثنين جُوَّا النهود. إياك أن تضيعهما.

أخذت الرسالتين بكلتا يدي ورأسي خفيض. وأضاف السلطان:

_ انطلقا في أمان الله، ولا تتأخرا في رسائلكما وفي نقل كل ما يدور في معسكرات جيش الكفرة الملاعين.

تزوّدنا بالدقيق والكسرة اليابسة، والدَامْسُورَا والقليل من التمر والفول السوداني ومسحوق السمسم المملح وسمك الكجيك، ملأنا الخُرْج بالماء من آبار جبل الحلة، حملنا ألواح القراءة والدوايات على الحمارين، ركبت أحدهما وأركبت الصبي القُرعاني الآخر، تأكدت من سلاح حمايتنا؛ سيفي وسكيني وسفروك الصبي القُرعاني. خرجنا فجراً من معسكرات جبل الحلة وتركنا وراءنا الفرسان يبدأون أول تدريباتهم العسكرية تحت إشراف الضابط المصري الهارب عبد الموجود.

وصلنا إلى قرية أم شنقا قبيل مغيب شمس يومنا الأول من مسيرتنا صَوْب مركز النهود، عبرنا بالقرب من الخندق القديم المحفور في شكل قوس حول ربوة أم شنقا العالية. حدّثت الصبي القُرعاني عن الحرب التي دارت قديماً بين جيش الترك وجيش سلطنة الفور: «عسكروا قبل سنوات طويلة في هذا المكان وحفروا هذا الخندق العميق وهم في طريقهم لمحاربة سلطان دارفور السلطان الفضل». فكرت وأنا أقصّ على الصبي شيئاً من سيرة الحرب القديمة أن المكان سيكون مناسباً لإقامة معسكر لجيش الإنجليز الملاعين لو خرجوا من مركز النهود متجهين إلى الفاشر. فاجأني الصبي القُرعاني وكأنه يقرأ أفكاري:

_ أَبَّا الفكي، جيش الكفار كان جاء بِعَسْكِر هنا، ومن هذا الخندق سيتحركون لدُواس جيش السلطان في جبل الحلة.

صلينا صلاة المغرب، وأنزلنا من على أحد الحمارين أدوات الطبخ، تحرك الصبي القُرعاني سريعاً وجمع أعواداً يابسة، أشعل ناراً ثم أحضر ثلاثة حجارة ضخمة وصنع منها لَدَايَات للطبخ، أدخل بينها بعض الأعواد المشتعلة، بينما بدأتُ أنا في خلط الدقيق بالماء لإعداد العَصيدة من جهة، وتنظيف سمك الكجيك لتجهيز المُلاح من الجهة الأخرى. تعشينا في وقت يتعدى زمن صلاة العشاء قليلاً، ثم جلسنا حول النار المشتعلة نستدفئ بها. كنت أحدِّق في وجه الغلام القُرعاني بعد أن شبع وارتوى وبدا رائق البال، كم من أفكار خطيرة تدور في هذا الرأس الأصلع! لم أنتظر طويلاً حين سألني:

_ أَبَا جبريل، أنت لا تتبع لجيش المحاربين، لكنك في الجيش، كلمني بعملك، هوْ كيف؟

لو سألني هذا السؤال في وقت سابق إما ضللته بإجابتي أو انتهرته والتزمت الصمت، لكن الآن ونحن الاثنان فقط عند أعلى ربوة أم شنقا نستدفئ بالنار ونرتشف في استمتاع كوبي شاي، أحسست بميل غريب لمكاشفته بكل أسرار كتيبة الكشافين السرية، أو عيون جيش السلطان المنتشرين في أصقاع السلطنة البعيدة والأراضي المحيطة بها، إحساس مزعج غزاه يقين عظيم بات يتوالد داخلي أن أيامنا إلى زوال؛ أيام السلطنة والعز، والقوة والمنعة، والبطش والعدل، أيام القتل والرحمة، أيام المجد والرفعة، أيام الثراء والفقر، الجبروت والرحمة، كلها مجتمعة بتناقضاتها وتمثلاتها إلى زوال. لفَفتُ

ثوب الفردَة الأبيض على جسدي وقلت لصبي القُرعان حسين:

_ أنت ذكي جداً يا حسين وأخاف عليك من العين وحسد الحاسدين وغدر الزمان، أدعو ربي أن يحفظك ويبدلك حالاً أفضل من حالنا ويُبوِّئك مكاناً يناسب فطنتك وشغفك بالتعلم والعمل.. نعم أنا أتبع للجيش السلطاني ولا أتبع له كما قلت. نحن يا حسين نمثل مجموعة كبيرة تسمى في البلاط السلطاني بكشافة الجيش أو عيون السلطنة التي لا تنام. يتم اختيارنا بدقة وبعد تمحيص شديد، وقد تلعب الصدف دورها في اختيار واحدنا مثلما حدث معك حين اخترتك بهدف إعدادك لتكون منا.. ونحن مُقسَّمُون بحسب تراتبية عسكرية معقدة يقتضيها تفاوت القدرات وحجم المخاطر ومكان العمل، لا مدة الخدمة وطولها.. الولاء والتسليم كاملين لسيدي السلطان علي ود زكريا هو ميثاقنا الأوحد ورباطنا الأقوى، نعمل متخفين، نتنقل بمرونة بين البيادر والمدن، الصحارى والغابات، الجبال والوديان.. يجيد الواحد منا عشرات المهن والحرف واللهجات واللغات، قد تجده في مكان ما مزارعاً يشارك الفلاحين حرق مخمسات السمسم بالنار وجمع محاصيل الذرة في الجباريك، وفي مكان آخر تجده تاجراً يسافر في أسواق أُمْ دورور أو يُمتِّر أقمشة الدمورية في السوق الكبير، وقد تصادفه _ يا حسين _ في خلوة قرآن أو مسيد لتعليم الصبيان وهو في ثوب الفقرا يعظ الناس ويدرِّس

القـرآن ويعالج الأبدان والنفوس بالأوراد ويسـقي النـاس مِحَايَة[1] القـرآن؛ لكن الهدف النهائـي وخلاصة الخلاصة من كل هذا التلوُّن والتكـوُّن هو حماية السـلطنة وتثبيـت أركانها وفضح نوايـا أعدائها والإيقـاع بهم قبل تنفيـذ خططهم الشريرة المؤذيـة لبنيانها وعمودها الثابت القائم في منعة من الله، سـيدي السـلطان علي دينار حفظه الله وأبقـاه.. شـاركنا يا حسـين في كل حروب السـلطنة التـي دارت في أركان بـلاد دارفور الأربعة، بتحركنا الـدؤوب وتَغلْغُلنا بين الناس وكشفنا المسـتور هنا وهناك. أسهمنا في تغذية خزائن السلطنة بالمال ومـلء مخازنها بالحبـوب والمزروعات دون انقطاع، وتزويد جيشـها بخيرة المقاتلين الشجعان المختارين نتيجة دقة تقييمنا وسلامة رؤيتنا وبُعـد نظرنـا. نحن جيش من وراء الجيش يا حسـين، سـلطنة تظلل السـلطنة يـا حسـين، وقوة تبارك قوة سـيدي السـلطان عـلي دينار، وتنشر عدله وجبروته.

كان الصبي القُرعاني يقلب عينيه المليئتين بالأسـئلة وهو يسـتمع لحديثي مقترباً بجسده الضئيل من النار، كنت منفعلاً ولم أستطع أن أُميـز إن كان قـد فهم كل كلامي أم لا، لكنه بـدا لي منتبها بتركيز مع كل كلمة أقولها. سألني في اتجاه آخر:

1- غسول الألواح الخشبية المدون عليها آي القرآن، تشرب باعتقاد العلاج والبركة.

_ صحيح سيدي السلطان يعلِّق الناس من عرَاقيبهم في سجن شالا بالفاشر، ويبني بجسوم الخاينين والسارقين المزروعة في جوالات العيش رواكيب في الخلاء؟

باغتني بانتقاله إلى موضوع آخر يرتبط من جهة معقدة بما كنت أحدثه عنه. إنه يسأل عن المحاكم السلطانية الناجزة، والحكايات المرعبة التي تروى عن سجون السلطنة المظلمة، والويل والثبور وعظائم الأمور التي تطال المتمردين والمارقين والكاذبين والمنافقين واللصوص والخونة، وصنوف العذاب التي يتفنن عسكر السلطنة في إذاقتها لهم؛ حكايات تبتدئ من حشر كامل الجسد في جوالات مليئة بالشطّة والقطط الجائعة، وتنتهي بزرع الأجساد في جوالات الضرابة، لتكون أعمدة لسقوف ومظلات السلطان وقادة الجيش المتنقلة من مكان إلى آخر، والموت لمن يتحرك أو يتململ مجرد ململة. هؤلاء طَيْف كبير من الناس؛ رجال ونساء، نالهم ما نالهم من القهر والعذاب في محاكم السلطنة في الفاشر أو جبل الحلة ومليط وغيرها من المعسكرات الحربية، ونحن الكشافة والعيون لعبنا ما لعبناه من أدوار عظيمة في الدفع بهم إلى أتون العذاب وظلام السجون وهلاكها. قلت لحسين القُرعاني:

_ أنت صغير الآن حتى تفهم لماذا يستحق البعض أن يساموا العذاب والتنكيل، لكن افهم هذا وتذكّره دائماً في مقبل الأيام، سيدي السلطان علي حفظه الله، لم يظلم أحداً من الرعية المؤمنة الساعية

لمرضاة ربها وحماية بلاد المسلمين، ومن سمعت بتعذيبهم كانوا من المنافقين والخونة والظلمة والسارقين والفاسقين والفاسقات، لم يعلق جنود سيدي علي رجلاً من عرقوبه ولم يبنوا راكوبة بأجساد الرجال لهواً وسدىً، لكن الخائن والسارق جرَّب العذاب كمن يجرب السّم، والمنافق والفاسق تجرع الألم قطرة قطرة إلى أن مات.. تذكَّر يا حسين سيدي السلطان علي ود زكريا وجيشه وفرسانه ورجاله وأمراؤه ونساؤه وأولاده، وعموم شعبه؛ كلنا، نعمل لسلامة البلاد وأمنها وحفظ دين الإسلام.. حاربوا ضد الأعداء في الجهات الأربع وصمدوا وانتصروا، استشهد أبطال وواصل المسيرة أبطال آخرون، والآن يا بني كلنا في مواجهة خطر مَاحِقٍ سَاحِق أقوى وأعظم.. والحافظ الله وما النصر إلا من عنده... هل سمعت بشجرة العدالة، يا حسين؟

سألته، فهز رأسه نفياً.

_ إذن اسمع ما أقصه لك وتذكّره جيداً. أمام القصر السلطاني، من جهته الشرقية توجد شجرة لَبَخ هائلة الحجم، ظليلة وكثيفة الأوراق. هذه الشجرة سمّاها الناس في الفاشر وقراها شجرة العدالة، لماذا؟ لأن سيدي علي دينار السلطان العادل الشفوق بشعبه، طلب من كل إنسان له مظلمة أو شكوى أياً كانت، أن يأتي إلى هذه الشجرة ويبقى تحت ظلّها إلى أن يراه السلطان بعينيه من داخل قصره، ويأمر حراسه ليأتوا به ويستمع لشكواه وينصفه أياً

كان خصمه، أميراً أو قائداً أو مستشـاراً. فالعدل يا حسـين أسـاس حكم سيدي السلطان، تذكّر هذا.

أَحسسـتُ به لا يزال يختزن بجوفه أسـئلة حيرى مقلقة تكبر سنه الصغـيرة، لكـن الوقت كان قد انـسرب في ظلام ليله، وغـداً أمامنا مسير طويل. طلبت منه أن ينام وحملت إبريقي ودخلت الخلاء.

تحرَّكنا من خندق قرية أم شنقا بعد صلاة الفجر، نزلنا من التلة العالية وعبرنا الخندق إلى الجهة الأخرى، الطيور من فوقنا تصدح صاخبة وزقزقة العصافير تملأ المكان بالضجيج. كنت أركب حماري بينما الصبي القُرعاني حسين يمشي على قدميه نشطاً أمام حماره. انحرفنا عن الطريق الرئيسي بعد خروجنا من الخندق ووَلجْنا مع أول خيوط ضوء الشمس غابة صغيرة مكوَّنة من أشجار السّنط والهشاب، يشقها درب مُربِك وعويص لا يسلكه إلا خبراء الأمكنة والدروب، يختصر المسافة إلى نصفها من أم شنقا إلى حلة الدَّم جمد وجهتنا التالية. الصبي القُرعاني حسين استمر ماشياً على قدميه لمسافة طويلة منشغلاً باختيار والتقاط أنواع متعددة من الأعشاب وعروق الأشجار ونبات الفطر، وجد بعضها منتشراً أسفل أشجار الهشاب، والآخر نابتاً على لحاء أشجار الليون كثيفة الأوراق التي تظهر متباعدة في الدرب ذي الانحناءات المُبَاغتة. كنت أعرف أن الوقت سيداهمنا إن لم نسرِّع من خطانا، فالجيش الإنجليزي في طريقه إلى الأُبيِّض ومن المحتمل أن يكون قد وصلها الآن، ولن يمكث فيها طويلاً، ونحن علينا أن نكون ضمن مستقبليه في مركز مدينة النهود حتى يتسنَّى للمهمة أن تُنجز بنجاح قبل تحرُّكه من هناك صوب الفاشر. المعلومات الأوليَّة التي وصلتني قبل التحرك من معسكرات جبل الحلة عن طريق أحد كشافتنا في أم درمان، تشير إلى أن المواجهة ستكون اختباراً

قاسياً أمام جيش السلطان، والحرب هذه المرة لن تكون نزهة ضد المعاليا أو الكبابيش، ولن تكون فخاً سهل الإفساد من قبل أحد أصغر الفرسان في مستنقعات الرزيقات. طردت القلق والارتياب وأنا أحاول استرجاع الصورة المرعبة التي نقلها ذلك الكشّاف عن نوعية الأسلحة التي جاءوا بها، وعن عدد الرجال والعربات والإبل والخيول. لماذا أستبق الأحداث؟ يوم أو اثنان وسألتقي بهم وجهاً لوجه وسأكتشف بنفسي إمكاناتهم وقدراتهم، وإن كان جيشنا قادراً على منازلتهم أم هي النهاية. لكزت حماري حتى يسرع لألحق بالصبي القُرعاني حسين الذي كان يطارد أرنباً شارداً قاذفاً نحوه السفروك في تصويبة دقيقة أدهشتني وأرجفتني على ارتجافي. سقط الأرنب ملتفّاً على نفسه وهَامِداً كالفراغ.

لم نتوقف في سيرنا ذلك إلا وقطاطي وشْرَاقِن أحواش حلة الدم جمد تبدو لنا على البعد، متلوِّنة بحمرة الشفق ووراءها قرص الشمس هائلاً في سبيله إلى الغياب. ربطنا الحمارين أسفل شجرة عرديب هائلة عند أطراف القرية. صَبَبْنا لهما القليل من الماء وجلب لهما صبي القُرعان حسين بعض العشب وأوراق العَدَار. تكفَّل حسين بشواء الأرنب الذي اصطاده مقدماً لي ملمحاً آخر من الدهشة عن خبراته في هذه الحياة وهو في هذه السن الصغيرة. سنقضي ليلتنا في حلة الدم جمد وفي الصباح سنتزود بالماء ومن ثم ننطلق صوب مركز النهود، لكن قبل ذلك قررنا أن نستريح قليلاً في هذا الفضاء الفاصل بين

الحلة وأشجار الخلاء الممتدة إلى حيث لا نهاية. بدأنا بشرب الكوب الأول من الشاي، وبعد أول رشفة سأل حسين سؤاله المختزن من ليل الأمس:

_ أبّا الفكي، صحيح سيدي السلطان علي طهَّر البلاد من جميع النساء العاهرات، وزوجهن جميعاً، ولم تعد في السلطنة امرأة ولو واحدة.. فَاتْحَة بيت؟

للمرة المليون يفاجئني الصبي القُرعاني بما لا أتوقعه من أسئلة وتصرُّفات. أين سمع بهذا؟ ما مدى اهتمامه بالمرأة وهو في هذه السن؟ كيف تسنى له إنماء هذا الاهتمام بأخبار السلطنة وهو في الخلاء يرعى أغنامه أو بين مهاجريَّة القرآن يدرس في المسيد؟ ترددتُ قليلاً في الإجابة على سؤاله، لكنني في النهاية وجدتها سانحة لأرفع أكثر من قيمة السلطان في مخيلته ولأثبته في صورة زاهية داخل ذاكرته قبل أن تتبخر هذه الصورة وتضيع إلى الأبد. قلت له:

_ نعم يا حسين، وهذه واحدة من كرَامَات وأفضال سيدي السلطان علي ود زكريا، وتبين عظيم حرصه على التقوى ومحاربة الفاحشة وتقوية الإيمان بين رعاياه من الرجال والنساء، وأن تسود الفضيلة والطهر. حدث ذلك يا حسين بعد عامين أو ثلاثة أعوام من استعادة سيدي السلطان أركان حكمه في الفاشر، حين نقل إليه بعض كشافتنا صورة مخجلة عن شيوع الفاحشة بين بعض نساء

البلاد المجاورة لأراضي السلطنة، وانتقال هذا الداء رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً إلى داخل بلدات السلطنة حتى وصل إلى داخل الفاشر نفسها، أرض الألواح والقرآن الكريم والمجد السلطاني. وبالفعل _ يا حسين _ انتشرت بيوت العاهرات بشكل عجيب تلك الأيام، وعمت أجزاء واسعة من حدود السلطنة من كل الاتجاهات ممتدة غرباً إلى انجمينا في وداي، وشرقاً حتى بقعة المهدي في أم درمان، وصار الرجال يقضون موسمهم في الزراعة والكدّ حتى يجمعوا الريالات الفضية ثم يبعثرونها بين أفخاذ ونهود هؤلاء النسوة العواهر. كثر أولاد الحرام، كثرت حوادث الطلاق وانقطع المطر بسبب انتشار الزنا والفساد، حتى خاف الناس أن يخسف الله الأرض بالعباد. وهنا يا حسين، ظهرت كرامات وصلاح سيدي السلطان علي دينار وقدرته وحِنكته وخوفه من الله وحبه لشعبه؛ أعزه الله ونصره على أعدائه من الكفرة والمارقين. اجتمع بقادة الجيش وكبار المستشارين وقاضي القضاة ووضعوا خطتهم للقضاء على هذا الدَّاء في مهده قبل أن يستشري أكثر. بدأنا العمل نحن الكشافين كما في كل خطط ومشاريع السلطنة الناجحة، انتشرنا شرقاً وغرباً في القرى والحلال والمدن والبلدات. في زمن وجيز حصرنا أسماء كل عاهرات البلاد من أقصاها إلى أقصاها، رسمنا الخرائط وحددنا المواقع بدقة وكشفنا الستار عن القوادين المستترين وتجار الرقيق المتخفين من وراء هذه البيوت المشبوهة لممارسة مهنتهم القذرة. عدنا في وقت

معلوم وسلمنا قائد الجيش الأول ود إبراهيم معلوماتنا وخرائطنا وانسحبنا حتى يتحرك الجيش ويقضي على الفتنة وهي نائمة. في ذلك العام المبارك، ضمت فاشر السلطان ثلاثمائة أو يزيد من هؤلاء النسوة العواهر، خيَّرهن سيدي السلطان علي ود زكريا، ما بين التوبة وحزّ الرقاب، لكن قبلها يا حسين، ولعدله ونبيل خلقه وفّر لهن سُبلاً كريمة للحياة وقدَّمهن كريمات عفيفات زوجات لمن يرغب من رجال السلطنة وفرسانها المنتشرين في كل البقاع. أشهد الله _ وخذها قصة للعبرة _ أن سيدي علي ود زكريا سلطان دارفور الأعظم قضى في أقل من عام على كل مظهر فساد وتعهُّر في أرضه، وأشهد أن على يديه تابت ثلاثمائة امرأة ضالة ومضللة، وأشهد في ذلك العام بين يديه انهزم الشيطان شرّ هزيمة، أعزك الله وأبقاك سيدي ومولاي.

هل كنت أحكي لصبي صغير أصفر اللون شاحبه صائد للأرانب ما حكيته عن توبة ثلاثمائة امرأة من عاهرات البلاد على يدي سيدي السلطان علي ود زكريا؟ أكنت أروي له ما أروي لإشباع فضوله وشغفه بالأسئلة أم لأحفظ الوقت من التلاشي والضياع في الأبد؟ هل كنت أنعي وقتنا، زمن الكشافين وجيش ود إبراهيم القائد الأول، وزمن سلطنة دارفور ساطعة الأنوار؟ خطر لي أن انتقل به إلى حكاية تناسب سنه فسألته:

ـ هل سمعتَ بقصَّة المَرْفَعِين[1] وأغنام الفقرا؟

ـ لا، أبّا الفكي. قال، فحكيت له الحكاية:

ـ في يوم من أيام السلطنة يا حسين، جاء إلى شجرة العدالة مجموعة من الفقرا المساكين، جلسوا تحت ظلِّها إلى أن رآهم سيدي السلطان وأرسل في طلبهم ليستمع لشكواهم ومظلمتهم. اشتكى الفقرا يا حسين من مَرْفَعِين لئيم ما فتئ يهاجم الزريبة المُلحقة بمسيدهم ويختطف في كل يوم أو يومين نعجة أو خروفاً من داخل الزريبة، حتى خافوا أن يستيقظوا ذات صباح ويجدوا الزريبة خالية من بهائمها فينقطع رزقهم، ورزق طلابهم من المهاجرية طلبة القرآن الصغار. سيدي السلطان العادل أمَر يا حسين جنوده بالبحث عن المرفعين اللص والإتيان به إلى الفاشر لمحاكمته. خرج الرجال لأيام مع الفقرا المساكين إلى أن تمنكوا من القبض على المرفعين اللص بالجُرْم المشهود وهو يحاول اختطاف أحد الخراف، أحضروه إلى سيدي السلطان، فأمر بجلده مائة جلدة في ساحة عامة، وحبسه بعدها مع الماعز والخراف داخل زريبة مسيد الفقرا، فحُبس بينها وظل مؤدباً ومستأنساً ينام وسطها وكأنه إحدى النعاج، إلى أن أمر مولاي وسيدي بإطلاقه في الخلاء بعد شهر، بعد أن تأدَّب.. أفهمت المغزى يا حسين؟

1- الذئب.

استغرق الصبي القُرعاني في الضحك، وأخذ يحاكي المرفعين بعد أن تبدل حاله من الشراسة الهجومية إلى المسكنة المستكينة، تبادلنا الضحكات الصافية لبعض الوقت، ثم غفَا الصبي القُرعاني قليلاً، كان تعباً من المشي نهاراً كاملاً في سُهوب كردفان وغابات هشابها الخضراء.

وصلنا إلى المقاهي السفرية عند أطراف حلة الدم جمد، في طريق المسافرين بعد انتصاف الليل، وجدنا الفوانيس مضاءة وبعض العابرين يتسامرون متحلِّقين حول نيران مشتعلة يستدفئون ويتبادلون أكواب الشاي الأحمر، إبلهم أنيخت قريباً منهم وحميرهم تقف بعيداً وكأنها ترفض النوم. قصدت والصبي القُرعاني يترنح ناعساً من ورائي جاراً الحمارين؛ إلى قهوة آدم فضيل، أحد كشافينا المستترين وعيون السلطان الحارسة داخل حدود كردفان. وجدناه ساهراً على خدمة زبائن قلائل من أعراب الكبابيش المتلفعين بالعمائم الضخمة، مستندين في جلستهم الأرضية على أغماد سيوفهم، وحناجرهم تنغِّم مقاطع الدُّوبَاي الشجيَّة في مناداة رجعية لحبيبة راحلة ومدحاً لبعير نادر الخصال. احتضنني آدم فضل بشوق حقيقي، أكثر من عامين لم نلتقِ، منذ هجوم همباتة دريب الرِّيح على قافلة سيدي السلطان علي القادمة من الكفرة الليبية ودوره الكبير في كشفهم واصطيادهم واحداً واحداً في صحراء أرض الميدوب كثيفة الكثبان. أخرج لنا عنقريبين من داخل قهوته التي لم تكن سوى كرنك قش قديم لكنه متماسك البنيان، جعلهما بعيدين عن حلقة

همباتة كردفان وهم يترنمون بمقاطع الدوباي في لذة وأسى. جلس معنا قليلاً بعد أن سقانا حليباً دافئاً وجلب كسرة عسلية خصَّ بها الصبي القُرعاني حسين الذي كان يتأرجح في مجلسه يُغَالب النوم. قبل أن يمضي لتلبية طلبات زبائنه قال لي الكشاف آدم فضل:

_ عليكما بالسفر فجراً، لقد بدأت طلائعهم بالوصول تبشر بتجريدة حاسمة وقاضية، ويشيعون أنها ستزعزع أركان السلطنة وتقضي على حكم السلطان، سيدي علي.

قررت وأنا أتقلب قلقاً في عنقريب نومي القصير ألا أسافر فجراً مثلما طلب آدم فضل، عليّ أن أغشى في الصباح سوق الدم جمد، وأن أصل إلى آبارها وأتزود بالماء، وألتقي هذه الطلائع، الخونة كشافة الإنجليز الملاعين، وحتى أسمع بأذني أو أقرأ بعيني بشاراتهم الخائبة بزوال دولة السلطان. كنت أتقلب أَرقاً على عنقريبي القصير وكآبة مقيتة تخز النفس وخزاً، ثم تطعن وتطعن في مكمن القلب، ثم تصرخ وتصرخ بملء الصوت؛ الصدى يملأ فضاء الدم جمد لقوة صراخها "أفول دولة السلطان، أفول دولة السلطان، أفول دولة السلطان، أفولكم، أفول، أفولك".. نمت وحمى الأفول تتصاعد ونغم دوباي همباتي حزين يأتيني من الجالسين بعيداً وكأنه من سماء الإله الأوحد، خازن الأسرار ومالك الأرواح:

"الحَرَّاتْ بِريدَه ربَّنا القُدُّوسْ

قْدَحُو في المَلَمْ يَبْقَى دوام مَدْعُوسْ
فِي الدُّنيا جَابُولُو الْفِي العِيَب مَدسُوسْ
وإِن مَات سَاقُوهو لِجَنَّة الْفَرْدُوْس"

في الصباح الباكر غشينا سوق الدم جمد الصغير، مررنا في طريقنا بالبيوت القليلة المبنية من القش والشراقن. في السوق اشترينا زجاجتي سَمْن بلدي وبُخْسة[1] روب كبيرة الحجم، وكوماً من التِّبشْ الطازج وبطيختين من البطيخ الكردفاني الشهي. عند البئر تركت الصبي القُرعاني حسين يسقي الحمارين ويملأ قربة الماء، وأخذتُ أتجوَّل بين البنات المنتشرات في المكان وهن يملأن آنيتهن بالماء لينقلنه إلى بيوتهن. كنت أدرك أن كشافة الإنجليز الخسيسين سيأتون إلى هنا لمشاغلة الفتيات والتسكُّع والتصعلك قليلاً، لكن لم أصادف أي شخص منهم إلى أن نبَّهني الصبي حسين بعد أن ملأ قِربة الماء وسقى الحمارين أن:

_ أبّا الفكي، ناسك هناك، بسقوا في الخيول.

الصبي المجرم سمَّاهم ناسي، الصبي الذكي عرفهم وتمكَّن من فرزهم من بين سكان الدم جمد الطيبين والمسالمين. مضيت نحوهم، كانوا كما توقعتهم يتضاحكون في تَدَعُّر محاولين استمالة الفتيات الجميلات والتحدث معهن. أدركت وأنا أقترب منهم أنهم ليسوا

1- آنية من القرع لحمل وتخزين السوائل.

مـن أبنـاء كردفان، هـؤلاء أشـبه بجنود جهاديـة المهدية السـابقين، وأقـرب إلى عسـكر سـليمان الزبير رحمـة الذين تفرّقـوا في البلاد بلا ضمين، بعد أن اغتيل سـيدهم على أيدي التُّرك، وتشـتت أحلامهم وذَاب مجدهـم قبـل أن يتكـوَّن. هؤلاء هـم الطلائـع إذن التي تبشر بزوال دولة السـلطنة، أجسـادهم فتية، وخيولهم رشيقة وكل واحد منهـم يعلّق عـلى كتفـه بندقيـة رمنتغـون، وفي أعينهم تتلاطـم مياه الرغبـة والحـذر والقسـوة. قالوا لأهل البلـد: "قريباً سـتأتي تجريدة الجيش الحكومي لضرب قواعد السـلطان علي دينار، الذي تمرّد على الحكومة وانضم إلى أعداء الحلفاء مع أنه تابع للحكومة وبلاده جزء متمم للسودان الإنجليزي المصري.. قريباً سترتاحون يا سكان الدم جمـد مـن مضايقاته وظلمه وتعديـه على أراضيكـم". هكذا أخبرني كشـافنا الكردفـاني آدم فضـل وهـو يودعنـا في الطريـق المـؤدي إلى عاصمة المديرية النهود.

كان علينا أن نقطع اثنتي عشرة سـاعة بـلا توقف حتى نمر قريباً من حلة ود بندا، وألا ننزل عندها ونواصل مسـيرتنا، حتى نقطع في يومـين ونصف اليوم المسـافة الطويلة من حلة الـدم جمد إلى النهود، متخذين طرقاً ودروباً غير مطروقة يسـلكها فقط الهمباتة والكشافة وعسـاكر المديريـة في بعـض الأحيان. يومـان كان أغلـب أكلنا على ظهـري حمارينـا، ونومنـا لسـاعات قلائل تنتهـي مع مقـدم الفجر. يومان أشـبعت فيهما نهـم الصبي القرعاني حسـين لمعرفة كل أسرار

سلطنة السلطان علي دينار، حكيت له عن بنات المطر باذخات الجمال، المنعمات والمربيات على رغد الحياة ورقتها منذ الصغر، عن حظوظهن المكتملة في عُرف النساء، ومصائرهن المرسومة والمؤطرة بأطر السعادة وهنائها في سبيل واحد لا حياد عنه؛ أن يكنّ زوجات للقادة، والأمراء، وسادة السلطنة، ومن حالفها الحظ ستكون زوجة للسلطان ذات نفسه، وعن معيار الجمال والدعة الذي يفصلهن ملايين الفراسخ عن النساء الأخريات، فبت المطر قد تولد فقيرة لكن جمالها يرتقي بها إلى مصاف الأميرات، قد تعزل عن أهلها وترسل إلى الفاشر وتتربى في كنف الأميرات مخدومة من السراري والجواري، وقد تترك بين أسرتها إن كانت سليلة نسب وحسب سلطاني مجيد. حكيت له عن شيخ الفزان الذي هرب بابنته الجميلة إلى داخل الحدود الليبية وورَّط قبيلة الزيادية في حرب طاحنة ضد جيش السلطان القوي، بعد أن رفضوا الانضمام والاشتراك في حملة مطاردة ومحاربة حلفائهم الفزان الفارين بابنتهم، سَالَ الدم في صحراء الزيادية وقصم الموت ظهر القبيلة. حكيت له عن كبير كتبة السلطان الخليفة حسين العكام، الذي أدهش كل من يتبع للبلاط السلطاني بتصنيفاته النادرة لتاريخ السلطنة، وحفظه لشجرة نسب سيدي السلطان علي دينار وأولاده وزوجاته وأحفاده، عن خزائن الأوراق والرسائل التي سكب فيها الشيخ العكام كل تاريخ السلطنة في عهد سيدي السلطان علي ود زكريا وأغلق عليه بالطبلة

والمفتاح. كشـفت له ونحن على أبـواب النهود في ليلتنا الأخيرة عن مخـاوف الضابط المـصري الهارب عبد الموجـود، وهو يقول صراحة لقـادة الجيش إن الوقت ضيِّق، والسـلاح ميّـت، والرجال يحتاجون شـهوراً حتـى يتدرجـوا بالتدريب إلى مرحلـة الجنديـة الحقَّة. كنت أحكي والصبي القُرعاني حسـين يسـتمع في تفكّر ويختزن الحكايات أو لا يختزنهـا، والحـماران تعبين يمضيان بنا يشـقان الطريق إلى قلب مدينة النهود نقطة انطلاقة تجريدة الجيش الغازي.

صلينا الفجر في مسجد حي قِمِر، وبعد أداء الصلاة أعطيت الفكي صالح جلالين إمام المسجد ومعلم القرآن، والشيخ المبروك، رسالتي سيدي السلطان علي ود زكريا رعاه الله وأبقاه. رحب بنا الفكي صالح وقادنا إلى خلوة الفقرا ومسيد الحيران، حيث دخلت أنا الأولى، بينما أخذ الصبي القُرعاني إلى الثاني. قال لنا:

_ ناما جيداً وخذا راحتكما من تعب السفر ورهقه، وغداً بعد صلاة الظهر نلتقي إن شاء الله ونتفاكر حول أمركما وأمر سلطان المسلمين المنصور بإذن الله سيدي علي ود زكريا الفضل.

التحق الصبي القُرعاني بمسيد الفكي صالح جلالين بحي قِمِر في النهود، أخرج من جراب الحمار لوح الكتابة والقراءة وقلمه ودوايته واندسّ بين طلاب القرآن الصغار من أولاد قبائل الحَمَر والتاما والبِديرِيَّة، وأخذت أنا أتجوَّل بلا هدف بين دكاكين سوق النهود الكبير، أتسقَّط الأخبار متحركاً من قهوة إلى أخرى، إلى أن جاء وقت صلاة المغرب، فجرجرت قدميّ المتعبتين حتى حيّ أبو جُلُوف كي أؤدي الصلاة هناك في جامع الإسماعيلية، ثم أحضر معهم النوبة والذكر على أمل أن يأتي الكشاف بِريقِع الدومة، بعد أن يئست من لقائه في نهارات النهود الدافئة. كنت أعرف أنه وصل من الأبيض أو يفترض أن يصل هذا اليوم، فنحن كشافة السلطان

دقيقـو المواعيد ولا نخلف الموعد قـط. شيء ما أخّره، ربما مرض أو فرح أو موت بعير. حضرت حلقة النوبة بمسـجد الإسـماعيلية بعد صلاة العشاء، وسبحت مع السابحين صوب السماء مجْذُوباً بحلاوة الذكر، ورددت معهم الأذكار وأنشدت مع المادحين والمنشدين:

هويتُكَ يا مَعشوقَ نفسي
وإنني بِحُبِّكَ مَفتُوناً دوَاماً عَلَى المَدىَ
فإنْ كَان فيك الوصفُ يَبُلغُ حَدَّه
لَزَوَّدتِ نَفْسِي التَعْب حَتَّى أحددا
حَقِيق بِما قِدّ قَيْل فِيكَ سِوَى الَّذِي
دَعَتهُ النَصارَى بِابْن مَرْيَم أَعْتدا
صَلَّى عَلَيكَ اللهُ وَسَلِمَ يا حَبِيب الله"

مـع الذكـر والإنشـاد ووقـع النوبـة الحارّ نسـيت لمَ أنـا هنا ومن أيـن جئـت وإلى أيـن أذهب، تباعـدت بيني وبين مهمتي المسـافات وانفتحـت روحـي نحـو السـماء، ذهلت عـن أنـاي مقرونـاً بالنداء الرباني ومشـدوداً بالسـمو العرفاني، غبت عن واقـع الدنيا ودناءتها وتذوبت في نقاء الأسماء والارتقاء:

" الشِدَّة حَلَت بِالمُهَج

يا رُبَّ فَجَدّ لِي بِالفَرَج
وَتَوَلّ أُمُورِي ظاهِرها
وَكَذٰلِكَ الباطِن بِالدُرْج
وَأَجْعَل لِي فِي قَلْبَيْيَ نَوراً
يَنْمُو وَيَفُوق عَلَى السَرْج
وَبِهِ أُهْدَى لِطَرِيق أَلْحَق
وَأُشْهِد حَقّاً فِي أَرْجَ
وَأَجَلِّي بَصْرِيّ وَسُوَيْدائِي
وَأَحْفَظَنِي عَنَّ كُلْ المَرْج
لِأُشاهَد نَوَّرَ جِمالكَ عَيْنا
بِالتَحْقِيق بَلّاً حَرَّجَ
وَأَكُون بِهِ غَيَّبا مَحْضاً
فِي حَبْك وَأُصْلِح لِي نَهَجَ
وَأَحْضَرَنِي عِنْدَكَ فِي
حَضَراتكَ وَأَبْقَى رَقّائِي بِالأَوْج"

في غيابي ومسرَاي الرَّباني أَحسستُ به سماوياً يحط قربي، ينشج

بالبكاء ويتشنج منه الجسد، يهتز إلى الأمام ويرتج إلى الوراء، نزلت بقربه، لامست بكفي كفه، همست في أذنه:

ـ بريقع، جئت إلى هنا، إنني أنتظرك من فجر مضى، فتعال.

خرجنا من جامع السادة الإسماعيلية وقمر وضيء ينير السماء وينعكس ضوؤه على الرمال ذهبياً يتلألأ. ذهبنا باتجاه طريق شفخانة النهود الوحيدة ونحن نتبادل الحديث الهامس. أخبرني بريقع الدومة بما رأى:

ـ وصلت تجريدتهم إلى الأبيض قبل يومين. آلاف العساكر من الجهادية والملازمية الراجلين والفرسان على خيولهم والأبّالة على جمالهم. شهدت بأم عيني المدافع المسماة المكسيم وهي تنقل من العربات وتحمل على ظهور الإبل، ربما أكثر من ثلاثين مدفعاً يا أخي، ورأيت الحماسة والفخار الذي يشع في أعين ضباط الجيش زرق الأعين. جيشهم منظم والقائد الإنجليزي يتحرك بينهم بخيلاء الأبطال المنتصرين ومن ورائه يمضي الضباط المصريون والأتراك والشراكسة وما لا أعلم من الجنسيات الأخرى. رأيت الجيش، الجيش الحقيقي، لأول مرة، ورأيت هزيمتنا... لكنني استغفرت الله وتذكرت أن النصر من عنده، الواحد الأحد، القوي القهار الصمد.

عند مفترق طريق الشفخانة المتفرع إلى دربين، واحد يقود إلى حي تاما والآخر إلى حي عرك، حيث يقطن بريقع الدومة، توقفنا هناك، في رأس آخر لقاءاتنا قبل أن نفترق إلى نهاية دنيانا. قال لي

بريقع وهو يمضي إلى عياله:

_ عليك أن تنتظرهم غداً في سفح جبل حيدوب، تحركوا من الأبيض والصباح سيشهد وصول صدر طلائعهم، انتظرهم هناك، تأمّل يا أخي المصير المدسوس بين طبقات غبار حوافر دوابهم، تأملهم جيداً وأحصهم عدداً ثم امض صوب سيدي السلطان علي ود زكريا.. بلّغه التحايا والطاعة والسلام.

قضيت بقية ذلك الليل في خلوة الفكي صالح جلالين، قرأت معه ما تيسَّر من القرآن الكريم، ثم جلسنا نتحاور حول بقية الساعات القادمة ليومنا التالي، وعن تجريدة الجيش الإنجليزي التي باتت على أبواب مدينة النهود في طريقها إلى إشعال الحرب ضد حكم سيدي ومولاي السلطان علي دينار. أخرجت من جيبي عشرة ريالات مجيدية وسلمتها للفكي جلالين، وأخبرته أنها تخصّ الصبي القُرعاني حسين.

_ لن يعود، يا أبونا جلالين، سأتركه في عهدتك، لا أعرف له أهلاً، لكنني أريدك أن تكون أهله ومعلمه وشيخه، الصبي ذكي وفطن ومبروك، لن آخذه معي غداً، لن يشهد النهاية.. سيكون معك، تلميذك وحواريك.. إن وافقتني يا شيخي.

كنت أعرف أنه لن يرفض.

_ من الغد سيلزم المسيد ولن يكون له عمل سوى تحصيل العلم

وحفظ القرآن، سألحقه بالمعهد العلمي إن نجح وصبر.

خبرني الفكي جلالين أنه أعد مراحاً من الضأن الحمري لنخرج به غداً في مهمتنا الاستكشافية على سفح جبل حيدوب وكأننا رعاة أغنام جاء بهم الطريق.

ـ ستجدونها مع أحد الرعاة في أطراف رهد الفولة، سيسلمكم إياها فجراً.

ذهب الفكي جلالين إلى بيته وراء المسجد وتركني وحيداً في الخلوة أقلّب احتمالات الغد التي لا تقبل القسمة على اثنين. غداً يوم التعب والرهق، يوم السعي الطويل على القدمين، والسفر الطويل بعدها على جواد الكشافين المُعدّ للمشاق، وغداً كذلك يا وجع قلبي فراق الصبي الحبيب ابن القُرعان حسين. إلى الغد.

مضينا، أنا والصبي حسين، بعد صلاة الفجر إلى رهد الفولة، ووجدنا راعي الضأن الحمري في انتظارنا، أخذنا منه السعيَّة[1] وخرجنا باتجاه جبل حيدوب شرق المدينة. الصبي القُرعاني بدا لي سعيداً ذلك الصباح الباكر وكأنه يستعيد بعضاً من ذكرياته الجميلة في مراعي الطويشة وجبل الحلة وأمكنة أخرى تركها بعيداً. ظل يطارد في مشاغبة طفولية الخراف الجائعة وهي تركض أمامه على الأرض الجرداء الممتدة في تداخل مناخي غريب يتنوع ما بين الصحراوي

1- تطلق على قطيع الماشية.

والمطير. كنت أدرك أن دقة الكشّـاف بريقع لا تخيب قط، وبحسـب حسـاباته الدقيقة فإن شروق الشـمس سـيضرب بأول ضوئه مقدمة تجريـدة الإنجليـزي حين تحاذي جبـل حيدوب الشـامخ. اقتربنا من الجبـل، اقتربنا من نهايـة المهمة، اقتربنا من الفراق، الذي تحقق سريعاً لصداقـة وأبويّة لم تدم سـوى أيـام. أمامي توقف الصبـي القُرعاني، انحنى على الأرض ووضع صفحة وجهه عليها وألصق أذنه:

ـ إنهم قريبون.. قادمون أبّا الفكي. قال ذلك وسفح الجبل يبدو لنـا على مرمى حجر، وأول خيوط الشـمس تلامس أغصان وفروع أشـجار التبلدي المنتشرة في إباء وبهاء في ذلك المكان. تحت إحداها؛ شـجرة تبلدي صغيرة السـن وقصيرة الجذع توقفنا. هدأت الخراف لهنيهات ثم ارتدت عائدة والتفت من ورائنا. الغبار كسحابة ضخمة عالقة في السماء كان يتقدم نحونا.

ـ هذا أول الجيش يا حسين، جيش العدو الكافر اللعين.

اقـترب الصبـي القُرعـاني منـي والتصـق بي وأولى طلائـع تجريدة الإنجليـزي تبـين أمامنا. الخيّالـة ممتطين صهوات خيولهـم التي تَدبُّ على الأرض بقوة ونظام، الأعلام والرايات ترفرف في الفضاء يحملها ضباط بيض زرق العيون، الأورطات السـودانية الرَّاجِلة، مرت أمام نواظرنـا في صفوف طويلـة حتى ظننا أنها لن تنتهـي، وجاءت بعدها قـوة الأبّالـة التي قدرت عدد جمالها بأكثر من مائة، تلتها ما قدرت أنها

بطاريـة مدفعيـة المكسـيم، حيث عبر مـا يقارب السـبعين جملاً محملة بالمدافـع والآليـات الثقيلـة، ثم أخيراً عـبرت ما قدّرت أنها شـفخانة طبيـة متحركة تلازم التجريـدة في حلها وترحالهـا. لم أعرف بالضبط كم من السـاعات بقينا في ذلك المكان أسـفل التبلدية الشابة والصبي القُرعاني حسـين يلتصق بجسـدي، أحسـه أحياناً في سـكون وأحسه مرات مرتجف الجسد. كانت الشمس في منتصف السماء حين جلست على الأرض تحت ظل التبلدية الصغيرة الذي بدأ يشح، أخذت أدون عـلى رقعة جلد رقيق تقديراتي للعدد الكلي لجنود التجريدة: «4 آلاف مقاتل بالتقريب»، وعدد الخيول «250 من الخيل الأصيلة بالتقريب»، وعـدد جمال الأبّالـة «100 من الإبـل المدربة والأصيلـة بالتقريب»، وعـدد المدافـع المحملـة على الجـمال «8 إلى 9 مدافع من نوع مكسـيم بالتقريـب».. وأخـيراً قـدرت أن القـوة بأكملهـا مسـلحة «بالبنادق الحديثة والمدافع الرشاشـة على التقريـب». تجريدة الإنجليزي جاهزة لحرب سريعة وخاطفة ونهائية، سيدي السلطان، على التأكيد.

تحـت الظـلال الشـحيحة لتلـك التبلديـة الصغـيرة بكـى صبي القُرعـان حسـين حين أخبرته بأنني سـأتركه هنا في مركـز النهود في مسـيد جامع الفكـي جلالين، ولن يعود معي إلى أرض السـلطنة في دارفور المواجهة بحرب شرسة ستندلع خلال أيام. بكى ورجاني أن أُرجعه معي كما أتيت به. بكى وهددني بالهرب بعد رحيلي إن لم آخذه معـي في عـودتي. بكـى وأنا أحلفه بكتـاب الله ومعزتي لديـه إن كان

يعـزني، بأن يبقى ويتعلـم ويحفظ القرآن الكريم ويكـون تلميذاً باراً بالفكي جلالين. بكى وأنا أقسم له بأنني سأعود يوماً لأراه وأتفقده وآخـذه معـي في إجازة ما لزيـارة أهله الذيـن لا أعرفهم ولم يحدثني عنهم قط. بكى وهو يقول لي:

_ أبّـا الفكـي، بَشُـوفْ المـوت أحمـر والاندحار هـلاك في أرض السلطنة.. ما تروح أبّا الفكي، ما تَمِشْ.

ضممته إلى صدري، ومسحت أدمعه الصادقة وقلت له:

_ لن ترضاها لي يا حسين يا ابني، أن أهرب من مواجهة الرجال وأترك أهلي وعشـيرتي يواجهون الموت وحدهم هناك وأنا منهم. لن ترضى أن أوصف بالجبان.

فبكى أكثر.

صلينا العشاء جماعة في جامع الفكي جلالين بفريق تاما. جلست مع الفكي ومعنا صبي القُرعان حسين. طلبت من حسين أن يستمع جيداً لكل ما يقوله له ويوصيه به الفكي جلالين. أخرجت من جرابي جلبابـين وعراقيين ومركوباً فاشرياً، وأعطيتهم للصبي. خرجا معي ورافقاني حتى وصلنا رهـد الفولة. وجدنا الحصان يقف وحيداً، لا شيء عليه سـوى السـرج، صدره عـال وأنفه ينفـث الأنفاس، كان مسـتعداً للرحيل. قفزت على ظهـره وودعتهما في طريقي إلى ود بندا أولى محطات تجريدة جيش الإنجليزي الغاشم.

(4)

المجلس السلطاني

«كلما أدركت وفهمت أكثر النظام الذي كان يدار به هذا البلد كلما احترمت علي دينار. لم يترك أي شيء ولو صغيراً إلا وتم إخضاعه وسداد ضرائبه (...) والكل احترم أقل أوامر الحاكم كل هذه السنين.(...). كما أتخيل أن الكبار الذين كان يحكم عليهم بالإعدام دورياً – وهم قلة عندما نفكر في الأمر – من المحتمل أنهم كانوا يستحقون ذلك»

ماكمايكل إلى ونجت باشا _ 29 مايو 1929م

في غرفته بقصره السُّلطاني في عاصمة سلطنته الفاشر، كان السلطان علي دينار مشغول الذهن ومُغْتمَّ النفس بسبب رسالة كشَّاف النهود الأخيرة، وما حوته من أخبار تفصيلية مقلقة عن تحركات وقدرات تجريدة الجيش الإنجليزي. أخرجت له أقرب زوجاته إليه؛ السلطانة بت الأمير المهدوي النور عنقرة، من خزانة ثيابه الحربية، لأمة الحرب السوداء، التي رأى أن يضعها على رأسه في هذا اليوم بدلاً من عمامته ذات الجوهرة؛ إعلاناً للحرب التي أوشكت على الاشتعال. كان يقف أمام مرآة تتوسط خزانة ثلاثية الأبواب خصّصها لكتبه وأوراقه، ذات إطار فضي عريض به نقوش لآيات قرآنية مكتوبة بخط كوفي دقيق،

أخذ يحدّق في وجهه ويتابع شعيرات بيضاء ناحلة مُتسللة بين سواد شاربه «مضى العمر بخيره وشره وحان وقت الامتحان الحقيقي، إما نحن أو يسود الكفار، إما النصر أو الشهادة». السلطانة ظلت قريبة منه تحس بما يعتمل داخله من هموم، أرادت أن تخفّف قليلاً من ضغط التفكير لديه، قالت له وهي تناوله عباءة الكتَّان الزرقاء الخشنة والثقيلة: «بسم الله ما شاء الله، حفظك الله ونصرك سيدي السلطان». تقف جواره وتنتظر أن يقول شيئاً. جسده كأنه تقَلَّص ونحف قليلاً، وبوجهه إرهاق عميق كأنه يسحب في كل ثانية تمضي دماء هذا الوجه.. واقف في مكانه يتأمل في جوف المرآة أثاث الغرفة الفخيم، الفراش العريض المستجلب من مصر، بمظلته القماشية الناعمة ذات الستائر الرقيقة، والناموسيَّة خفيفة الزرقة المسدلة باتجاه واحد، الوسائد البيضاء الرّخوة المحشوة بريش النعام، خزانة الملابس الخشبية بأبواب ثمانية وتشكيلات بديعة منقوشة على سطحها الصقيل؛ أسود تزأر وغزلان تركض وفارس يرمي رمحاً صوب نمر مثبّت في الفراغ، هذه الخزانة استدعى لها نجاراً خاصاً من الخرطوم، طلب منه أن يصنعها بهذه الصورة الرائعة، وحين أنجزها بهذا الكمال ألحقه بورِش القصر، لنجْر المئات من قطع الأثاث المتنوعة لكل غرف القصر وصالاته ومجالسه. تحرك من أمام المرآة ببطء وحدق في تسريحة زوجته الحبيبة بت النور عنقرة، تَسريحَة عثمانيّة قديمة جاء بها تاجر حجازي مع قوافل الحجيج العائدة من مكة المكرمة، وقدمها هدية

خاصة له. حدّق أخيراً بحنو بالغ في وجه زوجته السلطانة التي ما زالت تقف مبتسمة في محبة وإشفاق بانتظاره.

_ سنجتمع اليوم.. لإعلان الحرب.

_ الله ينصركم، سيدي السلطان.

_ ستكون حرباً حاسمة، الكفار أعدوا كل عتادتهم لهزيمتنا.

_ توكل على الله وقاتلهم سيدي السلطان، والله ينصركم.

خرج متوجهاً إلى المجلس السلطاني. من أمام باب الغرفة تحرك وراءه اثنان من حرسه الخاص، وفي البهو الأول الذي يلي جناح الحريم، التقى بحاجبه المقدوم آدم رجال، انحنى أمامه وقال:

_ الجميع حضروا، وجاهزون لاستقبالك سيدي السلطان.

عبروا البهو الثاني ووجدوا ثلاثة آخرين من الحراس ينتظرون، انحنوا، تركوا السلطان يمر، ثم تحركوا من خلفه. خرجوا من الجناح السلطاني في القصر وعبروا حديقة أشجار الرُّمان متوجهين إلى المجلس السلطاني. كان هناك جنائنيان من أولاد الريف يُشذِّبان أشجار الليمون والبرتقال، انحنيا، ثم واصلا عملهما. كانت هناك مجموعة من السراري يمشين حذرات على العشب الأخضر وبأيديهن أطباق طعام مغطاة بالبَرَاتيل[1]، جلسن على الأرض،

1- أغطية مستديرة منسوجة تغطى بها أواني الطعام في دارفور.

أكفهـن اليمنى تلامس الـتراب والأكف اليـسرى تُحاضن الأفخاذ. ظللن جالسـات حتى عـبر الجميع ومضوا من تحت عريشـة العنب كثيفـة الأوراق، مشـوا في الممـر الأخضر المكسـو بالنجيلة المخضرة في طريقهـم إلى بوابة المجلس السـلطاني، حيث ينتظرهم هناك أمراء السلطان وقادة الجيش والمستشارون وكبار رجال السلطنة.

خرجـت فاطمـة بـت عبد الماجـد ود الفكـي، كاتب السـلطان، بعـد أذان المغـرب في ذات اللحظـة التـي خـرج فيهـا المجتمعون في المجلس السـلطاني لأداء الصـلاة في الجامع الكبـير. أخبرها والدها منذ البارحة أن اجتماع اليوم سـيكون حاسماً، وفيه سيحدّد التوقيت النهائي للمعركة ومواجهة العدو الكافر، ولأول مرة سـيجتمع كل قادة الجيش وأمراء السـلطنة ومستشاري السلطان، وكبار رجالات الدولـة في اجتماع واحد مُوحَّد يضمهم جميعـاً. خرجت بعد مغرب هـذا اليوم وتركت أمها نفيسـة بت الريف في المطبـخ تعد فطائر من عجـين القمـح لوجبة العشـاء، وفي انتظـار مقدم عمتهـا زينب بت الفكي، التي سـتقضي معهـم جزءاً من الليل إلى حـين عودة زوجها محمد آدم، شـيخ الصاغة، وسَـادِن معمل سـكّ الريالات المجيدية. تدرجت فاطمة في أحياء المدينة غير عابئة بالصمت والظلام اللذين يلفان في تواطؤ مع ريح الشـتاء بيوت القش والطين، وهي تعبر بين أزقتهـا في طريقهـا إلى بيت الأمير الحكيم في حي مكركا، لملاقاة ابنته وصديقتهـا بت المطر، هادية. أرسـلت أم هاديـة، يوم أمس، إحدى

سراري البيت الصغيرات. حدثتها عن احتياج سيدتها لملاقاتها وتبرعت بسرد قصة حزينة تبين حالة الكآبة التي باتت تحيا فيها بت المطر منذ أن أمر الأمير الحكيم بألا تخرج أي امرأة من البيت في حال غيابه وإلا طارت كل الرؤوس. تعرف فاطمة أن القلب هو ما يُوجع جسد وروح بت المطر، تعرف أن الفارس سيف الدين البرتاوي، هو مصابها ودواؤها، وتدرك فاطمة، أن لا علاج لوجع القلب إلا المزيد من الأوجاع. مضت في طريقها ونباح كلاب شاردة يأتيها من بعيد متقطعاً. المدينة اليوم هادئة وكأنها أفرغت من ناسها، أو كأن الجميع هناك في مجلس السلطان يتداولون شأن الحرب ومجرى الدم وأوان الهلاك. اقتربت من قلعة الأمير الحكيم، وأبصرت بين ظلال القناديل المضاءة عند البوابة الضخمة، وجوه الحراس الجامدة وهم يحدقون في الفراغ. كانا اثنين كأنهما صنمان حجريان، يمسكان بحربتين، وسيف ضخم يتدلى من كتف كل منهما. البوابة الخشبية الضخمة مغلقة، وأسوار الحجر العالية تبين متباهتة على تلويحات الإضاءة الشحيحة. كانت هناك عربة كارو تقف وأمامها حصانان مُهيآن للانطلاق، وفارس معتم الوجه مصقول العضلات يجلس في مقدمتها ممسكاً بلجام الحصانين وكأنه ينتظر إشارة للانطلاق صوب المجهول. انقبض قلبها لمرأى كل هذا، وتساءلت لم حل الظلام بهذه السرعة هذا المساء؟ توقفت أمامهما، تأملها أحدهما لثوان، ثم أزاح المزلاج لينفتح باب صغير في منتصف البوابة الضخمة. سمعت من

الداخـل صوتاً غليظاً يقول لها: «تفضلي يـا فاطمة، ادخلي». وجدته مسـتلقياً على عنقريب قصير، يضع يده أسـفل ذقنه ويتأملها مبتسماً. كبير الحراس، أو رئيس القلعة، أو أي شيء، لا تدري بالضبط ما هي مهمتـه، لكنـه مهاب وملامحه مزيج من القسـوة واللين. نهض وهي تقـف قريباً منه، مد يـده واحتضن كفها لهنيهات قليلة. «ادخلي، بت المطـر الحبيسـة تنتظرك في غرفتها». أحسـت به وكأنه يـود أن يقهقه بأعـلى صوتـه، لكنه ابتعـد من أمامهـا وأخلى لها الطريـق لتمضي في دروب القلعـة المتداخلـة التي تعرفهـا جيداً وتحفظهـا منذ أن كانت طفلـة تـأتي لتلعـب مـع بت المطـر الجميلـة هاديـة. تركت حيشـان الزوجـات القديمات عـلى يسـارها، وولجت حوش الأمـيرة كلتوم أم بت المطر وسـليلة الأسرة السلطانية العريقة. كما توقعت وجدتها تجلـس على بنبر عال وقربها تجلس إحـدى سرياتها بينما سرية أخرى تطحـن عـلى فُنْـدُك[1] ألمونيوم صغير حبـات البن، كانـت تدق على الفنـدك في تنغيـمات جميلة وتـردد بخفوت مقاطـع أغنية ما، في حين تأخـذ سريـة ثالثة جمـرات من موقد مشـتعل النار على مسـافة قريبة منهـن؛ وتضعها في مبخر طيني على شـكل ناقـة، ثم تدور به حولهن فيعبق المكان برائحة البخور. جثت فاطمة بت كاتب السـلطان أمام البنبر العالي، مررت الأميرة كلتوم يدها على رأسـها وأمسكت بيدها لتنهضهـا. «سـتجدينها باكيـة في غرفتهـا، ثلاثة أيام لم تـذق طعاماً،

1- هون يصنع من جذوع الاشجار لطحن التوابل يدويا.

أقنعيها بالأكل أولاً والباقي هيِّن». قالت لها هذا، وطلبت من السرية التي تحمل المبخر أن تقربه منها، أمسكت به وغطت وجهها بطرف ثوبها واستنشقت البخور عميقاً، ثم أخرجت المبخر وأدارته حول رأس فاطمة التي ما تزال جاثية أمامها. «اذهبي إليها يا فاطمة فأنت الوحيدة التي تستمع لها في هذه الدنيا.. مباركة امض إليها، وأخرجي من رأسها هذا الجن المسمى سيف الدين».

اقتربت في مشيتها الهادئة من القُطيَّة المرتفعة، ذات القش الجديد والمنظوم بتصفيف بديع يعكس قدرات البنَّاء الفنان الذي شادها، في قمتها المخروطية بخسة طويلة العنق، معكوسة، عنقها الطويل غائص في القش وجسمها البيضاوي يستقبل السماء. دفعت الباب الخشبي الخفيف، المصنوع من أعواد القَنا المستجلبة من بانغي، ومدهون بطلاء زيتي مائل إلى الصفرة، فبدا لها بهياً وضوء القنديل ينعكس عليه وهي تدخل على بت المطر هادية، الحزينة والموجوعة حباً. وجدتها جالسة في وسط فراشها، رفعت عينيها المرهقتين وحدقت فيها.

_ ادخلي يا فاطمة السمحة.

اقتربت منها ومدت يدها لتسلم عليها، فجذبتها نحوها واحتضنتها ثم أخذت تنتحب:

_ لن أقابل سيف الدين مرة أخرى يا فاطمة.

مسحت فاطمة على وجهها وأزالت دموعها المنسابة.

ـ سيذهب إلى الحرب، وأبي قال إن لم يقتله الإنجليز سيقتله رجاله ويتخلصون منه.

قالت لها:

ـ نحن صديقتان يا هادية، وتدركين أنني أحبك وأريد مصلحتك، ستقتلين نفسك بهذه الطريقة، استهدي بالله وادعي لسيف الدين وبقية الفرسان أن يعودوا سالمين غانمين.

أغمضت هادية عينيها المتعبتين، نادت لقاءاتها مع سيف الدين في حدائق قصر السلطان. كان في بِزَّة الفرسان، البزة الخاصة بحرس السلطان، يحمل بندقيته على ظهره وسيفه يتأرجح متدليا عند وسطه، لم يكن برفقة السلطان أو أحد الأمراء، ولم تكن هي ترافق الميرم تاجا، ما جاءت لمراقبة الغزلان والأرانب البيضاء الصغيرة أو قطف ثمار الرمان والجوافة، جاءا ليلتقيا، هكذا لم يتواعدا لكنهما جاءا في نفس الموعد ومع النداء ذاته. جوار جدول يسقي أشجار البرتقال واليوسفي كان أحد أولاد الريف من الجنائنية يفلح الأرض، وينقل شتلة من شتلات اليوسفي ليغرسها في بقعة جديدة، كانت قدماه غائصتين في الطين والشتلة بين يديه حين رفع وجهه وابتسم لها، وبذقنه أشار إلى أشجار الليمون كثيفة الأوراق. مضت إلى هناك ووجدت سيف الدين، الفارس سيف الدين، يجلس على المقعد الخشبي، مُبتل الوجه بالأشواق ومشرق الروح بالحنين، الطيور

تصدح فوقها وهي تقترب، طيور الجنة تغرد، مناداة عصفور ودْأَبرق لحبيباته العشوشات، صوت طائر الكلجو كلجو يبشر بخريف آتٍ، القُمْري والدباس يغردان لسلام الكون، الببغاوات الملونة تردد في هارمونية متبادلة: «سيدي السلطان/ علي دينار/ سيدي السلطان/ علي دينار». جلست على الأرض، على قدميها، يدها اليمنى تلامس التراب، واليسري تحتضن فخذها الأيسر، لم ترفع رأسها وهي تحييه:

_ عافية، طيبين.

غزلان أم تكدم بخطوطها البيضاء على فرائها البني، وأرانب جبل سِقْرَا البرية بلونها الأغبش، وسلاحف جبل مرة المختفية في أحواضها، كلها خرجت في ذات الوقت؛ تقافزت الغزلان مرحة، رفعت الأرانب قوائمها الأمامية ومدت آذانها الطويلة، أخرجت السلاحف رؤوسها من أقداحها وحدقت فيهما.

_ يا هادية، طيبة أنت. جئت إليك.

قال لها. بمباركة الجنائني ود الريف، والطيور الصادحة والغزلان والأرانب المتقافزة وسلاحف جبل مرة الطيبة، نما الحب بينهما في حدائق القصر السلطاني، يظللهما أريج الياسمين وعبق زهر الليمون الفوَّاح. كانت تقول له:

_ سيف الدين، كيف بإمكاننا أن نتزوج وقد عمدت بت مطر.

قال لها في مرة:

_ لـن أصـبر يـا هادية، إلى أن تسـقي بميـاه مطرك رجـلاً آخر.. سآخذك ونهرب.

وكانت تقول:

_ سـيف الدين أنت فارس السلطنة، أنت أحد رجالها الحارسين ولن تهرب.

قالت لها فاطمة:

_ هاديـة، يـا أختـي، لا تعذبي نفسـك وتعذبيني معك، سـيعود سيف الدين، حتماً.

دخلـت عليهـما سريـة صغـيرة، ووضعـت أمامهما عـلى منضدة خشـبية قصيرة صينيـة طعام مغطـاة ببرتال ملون بالسـعف الأحمر. أزاحـت فاطمـة بت كاتـب السـلطان البرتـال. طبقـان موضوعان وبجوارهمـا كوبـان. دجاج مشـوي وعصيـدة بالرَّائـب، والكوبان مليئـان بمـشروب الكركـدي. مـدت فاطمـة يدهـا واقتطعـت من اللحم، قربت اللقمة من فم بت المطر:

_ سـتأكلين الليلـة وإلا لن أخرج من هنـا إلى أن يأتي أبوك الملك ويقطع عنقي ويصلبني على عمدان قطيتك.

ابتسـمت بـت المطـر وقضمـت قضمة صغـيرة من لحـم الطير. مضغتها ببطء شديد وابتلعتها كمن يبتلع أشواكاً مسنونة.

لم يفكر كاتب السلطان عبد الماجد ودالفكي، في الأسباب التي دعت كبير كتاب السلطنة ورئيسه المباشر الخليفة حسين العكام، ليكلفه بهذه المهمة الدقيقة والشاقة، وفي هذا التوقيت بالذات؛ فالبلاد تشهد استنفاراً حربياً يكاد يشمل جميع من يعملون في بلاط القصر السلطاني، أو يتبعون لإدارات السلطنة المالية أو القضائية أو الفقهية أو حتى تلك المتعلقة بالفرق الإنشادية والموسيقية. مدينة الفاشر بأجمعها الآن تترقب صدور القرارات الخطيرة مساء اليوم، وتحديد مسارات المعركة القادمة ضد أعداء الله وأعداء السلطنة الكفرة الملاعين، وهو الذي كان يتوقع – كما اعتاد – أن يكون حاضراً اليوم في البلاط السلطاني، وشاهداً على الاجتماع المصيري بين السلطان وأمرائه ومستشاريه من جهة، وقادته العسكريين والحربيين من جهة أخرى؛ ممسكاً بقلمه يدوّن ما يطلب منه ويسجل في ذاكرته كل شاردة وواردة، يفاجئه الخليفة العكام بهذه المهمة غريبة التوقيت. أمامه الخزائن الثلاث؛ اثنتان منها مفتوحتان وأمام كل منهما أكوام من الصحائف والدفاتر والرسائل السلطانية مختلفة التواريخ ومتعددة المناسبات والشخصيات، من داخل البلاد في الخرطوم أو أم درمان أو كردفان أو مقدوميات ومشيخات دارفور أو تلك التي أرسلت من وإلى الحجاز وليبيا السنوسية وسلاطين كنو، وحتى من الفرنسيين وغيرهم من أصدقاء السلطان علي دينار

وأعدائه. أوصاه الخليفة العكام وهو يسلمه مفاتيح الخزائن الثلاث:

_ يجب أن تنجز هذا العمل وحدك، ولا تتيح لأي إنسان آخر إمكانية الاطلاع على كنز الأسرار التي بهذه الخزائن.

لم يُتحْ له دخول غرفة الوثائق والعقود كثيراً من قبل، فعمله لم يكن مرتبطاً بها بشكل مباشر وإن كانت يوجد بخزائنها الكثير من العقود والرسائل المدونة بخط يده شخصياً. كان هناك مكتب وحيد، مصنوع من خشب المَهوقَني وسطحه مطلي بالجملكة اللامعة، به أربعة أدراج مغلقة الأقفال ومن ورائه كرسي خيزران من ذلك النوع الذي يستجلب من المديرية الاستوائية، وعلى يمين ويسار المكتب كرسيان آخران مصنوعان أيضاً من الخيزران، وسائدها مشغولة من عقد متشابكة لكنها ناعمة الملمس، هناك نافذة وحيدة تُطل على حدائق القصر عليها ستارة دمورية مصبوغة باللونين الأحمر والأخضر. هذا كل ما تحتويه غرفة الوثائق، إضافة إلى الخزائن الثلاث. احتار بأي واحدة منها يبدأ، أكبرها التي تقول حروف إنجليزية معدنية مُدببَّة منقوشة على بابها السميك إنها صنعت في إنجلترا، وتتكون من جزأين علوي وسفلي، لكل منهما باب منفصل عن الآخر ومفتاح منفصل، أم يبدأ بالخزانتين الصغيرتين المربعتين المصنوعتين في الخرطوم؟ بعد تردد قصير اختار أن تكون بداية عمله بالخزانتين الصغيرتين، لكنه دخل في حيرة أخرى: أيبدأ بوثائق ومدونات السلطنة الرسمية أم تكون البداية بوثائق الأسرة

السلطانية وعقودها، أم عليه أن يعمل أولاً على تصنيف وتبويب الرسائل والمكاتبات المتراكمة منذ ما قبل عودة السلطان المظفرة إلى الفاشر من أم درمان؟ «توكل على الله وابدأ بورق الإدارة ووثائق القضاء والجيش والمال يا عبد الماجد لأنها الأهم في هذه المرحلة الحرجة». بدا مقتنعاً بتبريره هذا وشرع في فصل الدفاتر والوثائق الإدارية عن بقية المستندات العائلية والرسائل والخطابات المختلفة. اختار مجلداً جديداً، انتقى قلم خط الرقعة وكتب على الغلاف: (سياسات سيدي السلطان علي بن زكريا بن محمد الفضل في تدبير حكم سلطنة دارفور). بدأ بتصنيف المكاتبات والأوراق الصفراء بحسب التواريخ المسجلة عليها منذ أولى سني السلطنة في عهدها الدِّينَاري الجديد. استغرقه العمل ودخلته متعة الكشف التاريخي إلى أن نسي الاجتماع المصيري في عمر هذا التاريخ الذي تجري مداولاته الآن قريباً منه على بعد ثلاث قاعات متجاورات في القصر السلطاني، لا يفصلها سوى الجدران السميكة. غاص في الزمن ولم يعد إلى اللحظة الراهنة إلى أن أمسك بدفتر (تكوينات الجيش السلطاني) وأخذ يراجع الأسماء المدونة قبل أن يضعها تحت باب (تدبير الحروب وضمان أمن العباد والبلاد)، كما رأى أن يكون لها عنوان فرعي: (رؤساء الجيش وقادة الأرباع)، وبدأ بمراجعة أسمائهم اسما اسماً: الأول رئيسه أحمد ود إبراهيم – ابن أخت السلطان علي دينار، الثاني رئيسه منصور عبد الرحمن – ابن أخ السلطان علي دينار،

الثالث رئيسه عبدالرجال – من عبيد السلطان علي دينار، الرابع رئيسه الملك محمود الدادنجاوي، الخامس رئيسه مقدم شريف، السادس رئيسه الأمير سليمان ود علي، السابع رئيسه رمضان ود برة، الثامن رئيسه الخليل ود أكرومة – رئيس قبيلة الميماوية، التاسع رئيسه الأمير حسن ود أسبل، العاشر رئيسه إسماعيل علي – الجلَّابي، الحادي عشر رئيسه عبد المكرم بنجاوي – عبد السلطان، الثاني عشر رئيسه كتونج – عبد السلطان، الثالث عشر «الخوشخانجية» رئيسه نجابز كداوي.

دون أسماء القادة الكبار والفرسان من بعدهم في قائمة لوحدها، تتفرع عنها قوائم أخرى بحسب الكراديس العسكرية التي يترأسها كل قائد أو فارس، ثم شرع في ترتيب المهام الموكلة إلى كل مجموعة وكل قائد، اختيار المقاتلين وتجنيدهم، القبائل المُفضلة في عملية التجنيد قبائل (الزغاوة، الفرتيت، البرقو، الداجو.. الفور)، تدريبات الجنود وجهات المعسكرات وأصناف المدربين، الكشافة (كيفية اختيارهم، رؤساؤهم، خريطة انتشارهم من وداي إلى سواكن، ومن ديم الزبير إلى الكفرة الليبية، المال المخصص لهم)، مساحة كبيرة وجدها مفردة لهم، انتقل إلى أنواع الأسلحة: عدد البنادق بمخازن الضابطية، عدد صناديق الذخيرة المنتجة سنوياً من مصنع الذخيرة السلطاني بالفاشر، الكيفيات التي تستجلب بها البنادق من أرض الحجاز وبلاد السنوسية ومصر، السلاح

الأبيض، السيوف والرماح، السفاريك والنبال. وضع كل ورقة في مكانها إلى أن وصل إلى المعارك التي خاضها الجيش السلطاني منذ بدايات الحكم، عدد المرات التي انتصر فيها، وعدد المرات – القليلة – التي هُزم فيها، القبائل الحليفة والقبائل العدوة، أسماء الفرسان الشجعان الأبطال في كل معركة على حدة، الخطط الحربية التي قادت من نصر إلى آخر، المحاكم العسكرية بتواريخها ووقائعها، أسماء القادة والجنود الخونة الذين أعدموا والذين ما زالوا يتعفنون داخل السجون بانتظار موتهم، المعسكرات ومواقعها وعدد جنودها وأصولهم ونوعية سلاحهم، الحدود وحراسها، التموين، الزي، الموسيقى العسكرية... الخ كل شأن عسكري مدون بدقة عجيبة.

انتقل قبل نداء أذان الظهر إلى ملف القضاء ومحاكم السلطنة، جلبه من الخزانة الأخرى وترك أكوام الأوراق الإدارية المتعلقة بالجباية والزراعة في مكانها على طاولة المكتب، وانقاد لخاطر مفاجئ دفعه لتقليب وثائق القضاء. توقف قليلاً عند وثيقة مكتوبة بماء الذهب توضِّح بنود وأسس قانون دالي التاريخي، أساس سلطنة دارفور. مرّ سريعاً على التراتبية الوظيفية وبند مالية القضاء ونظام الأحكام القانونية، إلى أن وصل إلى أشهر القضايا التي شهدتها محاكم عاصمة السلطنة الفاشر، قلب الأوراق المصفرة تباعاً حتى وقعت عيناه على العنوان الجَائِل بخاطره (قضية الصائغ سليمان البديع صاحب مصنع سك الريالات المجيدية). كانت المعلومات مفصلة ومحكية بصورة

تقترب من التشـويق القصصي: «اسمه سـليمان فتحي البديع، أسمر اللون، طويل القامة، سمح الوجه وله فلجة ظاهرة بين أسنانه العليا. وكان أنيـق الملبس، يرتدي على الـدوام جلاليب من قماش التِترون؛ إما صفراء اللون أو بيضاء، ويضع على كتفيه ملفحة مطرزة الجوانب وعلى رأسـه عمامة ضيقة تشبه عمامات الشـيوخ الأزهريين، وينتعل مراكيب فاخرة مصنعة من جلود النمور والزواحف. حل في الفاشر فجأة ولكن تأكد أنه جاءها من النهود وإن لم يتم الاستيثاق إن كانت أصوله من النهود نفسـها أو هو من أم درمان أو أي بقعة أخرى من بلاد السـودان. جاء برفقتـه تابعان يقاربانه في العمـر، صموتان، لا يريـان إلا وهما منحنيـان على العمل، كـما كان في معيته خادم صغير يخدمه في البيت والدكان. سكنوا في حي القبة، وفي أول يوم لسكناه، زار جيرانه بيتاً بيتاً وقدم نفسـه لهم باعتباره صائغ ذهب ومجوهرات جاء من كردفان وقرر أن يُجرِّب رزقه في هذه البلاد بعد أن سمع بعدل سـلطانها وخيراتهـا وطيبة أهلها وسـعة العيش التـي منحها لهم الله تعالى. لم تمض أيام قلائل حتى أسـس الرجل ورشة لصياغة الذهب في سـوق الفـاشر الكبير، ثم مضى شـهر أو اثنـان ولطريقته المختلفة في شـغل المصوغات الذهبية والفضية وأسـلوبه الجديـد في التعامل مع الزبائن صار الصائغ الأشـهر في السـوق. وهنا، وهذا في الشـهر الأول فقط، أسـس الرجل بمسـاعدة عامليه وخادمه ورشة أخرى للمصوغات لكن هذه المرة في منزله بعيداً عن السـوق وزبائنه وعن

كل الأعين. كان الناس وهم يخرجون لأداء صلاة الصبح يسمعون أصوات آلاته وهي تطرق المعادن ويبصرون الإضاءة الخافتة مُتسرِّبة من ورشته الملحقة بالمنزل، وفي هذا الشهر بالضبط امتلأت أسواق الفاشر ومليط ونيالا وأسواق الحلال والقرى الصغيرة الممتدة إلى النهود بعملات الريال المجيدي المزيفة، فتحرك الكشافون وتسقطوا الأخبار إلى أن قادتهم المعلومات إلى معمل الرجل وورشته السرية بحي القبة، حيث عثروا على أكثر من ثلاثمائة ريال مجيدي مزيفة تحتوي على نسبة قليلة من الفضة ونسبة عظمى من المعدن الرخيص، وقد تم سكها ورصها وإعدادها لتوزع في المدينة والقرى المجاورة. غُيب الصائغ سليمان البديع في السجن وذاق صُنوفاً من العذاب لم تخطر قط على باله، قارب الموت؛ بل تمناه وهو يتعفن في أقبية سجن شالا الأرضية، إلى أن قرر السلطان إخراجه من السجن وحبسه في ورشته بحي القبة ليكون تحت إدارة الصائغ محمد آدم لسك ريالات الفضة المجيدية المضروبة من جديد؛ لكن هذه المرة لحساب سيدي السلطان علي ود زكريا وسلطنته المباركة".

رفع الأذان لصلاة الظهر وما يزال كاتب السلطان عبد الماجد يقلِّب في دفتر ومدونات دائرة القضاء السلطانية، متتبعاً الهيكلة الوظيفية المعقدة لقضاء السلطنة بدءاً من قاضي القضاة إدريس عبد الله، الذي حقق رؤية السلطان في الإصلاح القضائي ومعالجة القضايا العالقة منذ ما قبل فترة المهدية، مروراً بقضاة المحاكم

الأهليـة، ومحاكـم الرواكيـب والجوديـات، إلى المحاكم العسـكرية الناجزة التي تعقد في المعسكرات الحربية وتتبع إدارياً لقاضي القضاة إدريـس الدنقـلاوي. كتب عـلى غلاف دفـتر جديد (نظـام القضاء العادل في سـلطنة دارفور في عهد سـيدي السلطان علي بن زكريا بن محمد بـن الفضل). وضع القلم بجوار المحبرة على المكتب الخشـبي بقـرب الدفاتر التي أكمل تبويبها وإعادة ترتيبها. توقع أن السـلطان يجتمـع الآن بقـادة الجيش الأساسـيين بينـما غيرهم من المستشـارين والفرسان والأمراء توجهوا لانتظارهم في الجامع الكبير لأداء صلاة الظهر. خرج وأغلق وراءه باب خشب المهوقني الثقيل.

بعد أن أمره قائد الجيش الأول ود إبراهيم بأن ينضم إلى معسكر جبل الحلة، وأن يكون مساعداً للضابط المصري الهارب عبد الموجود في تدريب المقاتلين والفرسان والمجندين من الجدد والقدامى، وتوصيته بأن يتشرّب من الضابط المصري بكل تكتيكات القتال وأساليب الحروب الحديثة، خرج الفارس سيف الدين البرتاوي من مدينة الفاشر مهيئاً نفسه لرحلة قد تطول إلى أن تندلع الحرب، التي – فكَّر – أنه لن يعود منها أبداً، قَارِناً ذلك بتشاؤم غريب ناتج عن عدم ملاقاته بت المطر حبيبته هادية قبل رحيله من المدينة متوجهاً إلى معسكرات جبل الحلة. كان معسكر الجيش يقع في السفح الشرقي للجبل، تفصله عن أقرب الحلال والقرى مسافة لا تتعدى المائة كيلومتر مكونة من التلال والكثبان الرملية. لم يكن الجنود المتدربون يختلطون بالأهالي، الذين يدفعهم الفضول أحيانا للمرور قريباً من المعسكر، كما يداوم مشايخهم ونساؤهم وأطفالهم على تقديم الطعام القليل المكون من عصيدة الذرة وملاح الكول مرة إلى أخرى لمن يصادفونه من جنود المعسكر أثناء احتطابهم أو صيدهم أو جلبهم للماء من الآبار التي تقع في نقطة تتوسط المسافات بين جميع حلال وفرقان المكان. بخلاف ذلك لم يكن هناك أي تداخل بين فرسان المعسكر والأهالي، ولم يكن هناك أي مُجند من تلك القرى ضمن التشكيلة الحربية لمجندي المعسكر. وجد الفارس سيف الدين

في عزلـة الجبـل والتدريبـات المتصلة عـزاء له، وفرصة مناسـبة كي يتخلص من تباريح حبه المسـتحيل. أنشـأ علاقـة صداقة سريعة مع الضابـط المـصري الهـارب عبد الموجـود، وصارا في وقـت وجيز لا يفترقـان عـن بعضهما، لاسـيما في الفترة التي غاب فيهـا قادة الجيش الكبار حين اسـتدعاهم السـلطان علي دينار لمناقشة تفاصيل الحرب القادمة ورسم خططها وتحديد موعدها والأرض التي ستدور فيها. الضابـط المصري الهـارب عبد الموجود وجد في سـيف الدين بدوره مسـاعداً ممتازاً في التدريبات العسكرية، وإن افتقد بعض التكتيكات الحربيـة الحديثـة، لكنـه – فطرياً – كان بذهن حـربي مكتمل، سريع الاسـتيعاب لأسـاليب وطرق القتال وخططه المتنوعة. كانا يقضيان نهارهمـا في تدريـب المقاتلين عـلى الأسـلحة النارية الخفيفـة متمثلة في البنـادق المحـدودة القديمـة ذات الطلقـة الواحـدة، أو في البيادة والرياضـة العسـكرية بالعـدو حول الجبـل أو الصعـود إلى قمته ثم الهبوط مراراً وتكراراً، إلى جانب تدريبات القتال الفردية بالأسـلحة البيضاء؛ السـيوف والرماح والسفاريك. في الأمسيات كانا يجلسان أمـام كرنـك الضابـط عبد الموجـود ويتحـاوران حول أفـق المعركة القادمـة ومدى حظـوظ الجيش السـلطاني في مواجهة جيـش مُنظَّم ومسـلّح بالأسـلحة الحديثة من بنـادق ومدافع، خـبره وعرفه جيداً الضابط المصري عبد الموجود. كان يقول له:

_ يا سيف، الوقت ضيق جداً ولن يسعفنا في تدريب كل هؤلاء الرجال.

لا يتوقع رداً لأنه يعرف أنه يوافقه في هذا الرأي الذي ناقشاه مئات المرات فيضيف:

_ تكلموا عن بنادق وأسلحة قادمة من الكفرة الليبية، لكن حتى الآن لم تصل ولا أعرف متى ستصل، وإن وصلت هل ستستفيد منها هذه القوة غير المدربة جيداً أم لا؟

يسأله سيف وهو يدفع أمامه حسامه بعد أن جرَّده من جرابه الجلدي، فبدا مضيئاً بسبب انعكاس النار المتقدة قريباً منهما:

_ ألا يمكن أن نعتمد في هذه المعركة على أسلحتنا التي تعود الرجال على القتال بها، السيوف والرماح والسفاريك والسكاكين؟ سنكون أكثر منهم وإذا استطعنا تطويقهم ومن ثم الاقتراب منهم واختراق صفوفهم وحدث التلاحم فأؤكد لك أن النصر سيكون حليفنا بإذن الله.

يضحك الضابط المصري وهو يقبض على بندقيته الرمنتجون الموضوعة بجواره ثم يحملها لتكون في مواجهة حسام الفارس سيف الدين المشرع في الهواء:

_ هل سمعت بمعركة أم درمان، يا سيف؟ مقتلة كرري الكبرى

ألم تسمع بها؟ في هذه المعركة يا سيف قرر الدراويش مواجهة الإنجليز بذات هذه الأسلحة التي تتحدث عنها، وكانت النتيجة أن أكثر من عشرة آلاف مقاتل قتلوا في أقل من نصف ساعة في سفح الجبل، هل تعرف السبب؟ سأقول لك؛ لأن الإنجليز استخدموا فقط سلاحاً يسمى المدفع يحصد الناس من على البعد كالجَرَاد، وهو ما سنواجهه إذا قررنا مقاتلة الجيش القادم نحونا بسيوفنا وحرابنا وسفاريكنا.

يقهقه عبد الموجود في ليل جبل الحلة الطويل حَالِك الظلمة، بينما لا يزيد الفارس سيف الدين عن رسم ابتسامة صغيرة مقتضبة. لم يتوغلا قط في خصوصياتهما، لم يسأل سيف الدين عبد الموجود لماذا هرب من أورطته في الجيش الإنجليزي بمركز النهود، ولم يسأل عبد الموجود سيف الدين قط لماذا هو حزين وكئيب هكذا ولا ينام الليالي ويقضي أوقات فراغه بين صخور الجبل ومغاراته بائساً وحيداً. أمسياتهما ولياليهما كأنها منسوخة نسخاً، يتناولان عشاءهما – أياً كان – برضا، سوياً، يأمر الضابط المصري حارسه الخاص بأن يعد له حمامه الليلي. دائماً يَستحم بعد منتصف الليل. يخرج من الحمام منتشياً، يدندن بأغنية مصرية ما بصوت خفيض، يتأمل النجوم التي ترصع السماء بأنوارها المشعة، يستنشق هواء الخلاء العليل. "يجب أن تنام الآن لترتاح، غداً أمامنا يوم شاق من التدريبات والبيادة" يقول لسيف الدين البرتاوي هذا ثم يتجه إلى

كرنكه القصير المبني من القش والقصب، يغلق عليه الباب بإحكام. لـن يخـرج مرة أخـرى إلا في بواكير الصبـاح. يبقى سـيف الدين في مكانه على حجر الجرانيت المسـتطيل، مستدفئاً بالنار فترة من الوقت إلى أن تبدأ أطياف هادية بت المطر بمناوشـته وإقلاق روحه فيكافح حنينها وأنفاسـها اللاهبة بالمشي على ضوء المشاعل الموزعة في أنحاء المعسكر، متنقلاً بين ساحات التدريب الخالية من الجنود المتدربين في هـذا الوقت من الليل، وبين خيام وقطاطي الجنود الغارقين في النوم بسبب تعب وإنهاك تمارين وتدريبات النهار، يتفقد ديدبانات التأمين الليـلي من الحراس الذين لا ينامـون، ثم يصعد إلى أعلى الصخور في أطراف المعسـكر ويبقى هناك مسـتمعاً لعواء المرافعين والبَعْاشِيم[1] التي تسـعى لصيد ما في الجانـب الآخر من الجبل المهيأ لأولى معارك السلطنة الحاسمة.. قريباً.

1- المرافعة: الذئاب مفردها مرفعين. البعاشيم: الثعالب، مفردها بعشوم.

حين دخل السلطان علي دينار إلى المجلس السلطاني في صباح هذا اليوم من شهر مارس سنة 1916 ميلادية، وجد في انتظاره ثلاثة عشر رجلاً من كبار رجالات سلطنته هم: ابن السلطان الأمير زكريا، قائد الجيش الأول ود إبراهيم، كبير المستشارين الملك محمود الدادنجاوي، قائد معسكر جبل الحلة رمضان وَدبُرة، قاضي القضاة الشيخ إدريس الدنقلاوي، قائد معسكر برنجيَّة سليمان علي ود إكرومة، الأمير الحكيم، وزير التجارة بشير نصر الشايقي، شيخ السوق وسر التجار تاج السر الجلَّابي، القائد الحربي كتونج، القائد الحربي عبد الرجال، كبير كتَّاب السلطنة العكام، القائد إسماعيل علي. جميعهم انتصبوا واقفين حين هلّ السلطان داخلاً عليهم رغم أنه فاجأهم بدخوله من باب الحدائق السلطانية الخلفية، وكانوا يتوقعون مقدمه عن طريق الباب الرابط بين الأجنحة السلطانية في القصر في جزئيه الحَرِيمي والأميري. جميعهم يلبسون لباس الدواس والحرب، بمن فيهم كبير كتاب السلطنة العكام وسر تجار السوق السر الجلَّابي، وقاضي القضاة إدريس الدنقلاوي. صعد السلطان علي دينار إلى عرشه بخِفَّة ونشاط تسربا إلى جسده المُنَهك لمرأى رجاله الأوفياء حاضرين بين يديه، بعد أن كاد جسده يخذله قبل ساعات من الآن وهو يتلقى رسالة كشاف النهود. جلس على كرسيه السلطاني، وبسط يديه فجلس جميع من بالمجلس عدا

جفال خادم السلطان، الذي ظل واقفاً لهنيهات قريباً من المدخل ثم انسحب خارجاً مغلقاً الباب من ورائه. الأمير زكريا بن السلطان علي دينار، جلس على يمين أبيه السلطان. قادة الجيش الحاضرون بدوا في أتم لياقتهم العسكرية وتأهبهم الحربي. قاضي القضاة كان يكر حبات مسبحته مبتسماً في رِقَّة، والكاتب السلطاني الأول يفرد أمامه أوراقه ويعد قلمه ومحبرته للتدوين، بينما شيخ السوق ساكن الوجه هادئ وبعينيه نظرات حيادية. خاطر مملوء بالثقة جَالَ في بال السلطان وهو يتأمل رجاله ومستشاريه المقربين وحراس سلطنته وهم ممتلئون بالحماسة وتعابير وجوههم تعكس الرغبة الطاغية في التضحية لأجله «سنقاتل حتى الرمق الأخير، هؤلاء الرجال لن يُهزَمُوا أبداً». تأملهم قليلاً متيحاً للصمت مساحة لترتيب أفكاره ثم ابتدر كلمته مدشنًا بداية اجتماع الحرب الحاسم:

_ جميعكم تعرفون أن كشافتنا في الأبيض ومركز النهود والطريق الواصل من ود بندا حتى جبل الحلة أكدوا أن جيش أعداء الله الإنجليز الكفار الملاعين بدأ التحرك نحونا لمحاربتنا ومحاربة دين الله الإسلام، وكلكم تعرفون أننا دون ديننا وبلادنا ننتصر أو نستشهد. اليوم في هذا الاجتماع المبارك – بمشيئة الله تعالى – سنوزع الأدوار ونقسم المهام ونتفق على الخطة النهائية لمواجهة هؤلاء الكفرة المارقين، لذا ترونا نجتمع جميعاً لنخرج بكلمة رجل واحد نواجه بها هذا الكفر المبين.

صمت السلطان لبرهة من الزمن وأخذ يحدق في الوجوه التي يبدو على أصحابها الإنصات والانتباه التامين وهم يتحاشون النظر إليه وملاقاة أعينهم بعينيه. التفت إلى الأمير زكريا ابنه الأكبر فبدا له وكأنه تحول إلى كائن من حديد جامد بتصلبه وصمته المكتملين. "هؤلاء رجال لن يغلبهم أحد بإذن الله". وجه حديثه إليهم مرة أخرى:

ـ قبل أن ندخل في تفصيل المعركة، نريد من وزير التجارة بشير نصر الشايقي، أن يطمئننا على أحوال المعيشة في حال حدث حصار أو طالت الحرب إلى أمد غير معلوم.

نهض وزير التجارة الشيخ بشير نصر الشايقي من على كرسيه، كان يرتدي الزي العسكري كاملاً رغم كبر سنه، متمنطقاً بسيف طويل وصلت مقدمته إلى الأرض حين وقف، وعلى رأسه عمامة سوداء مُحكمة اللف والتدوير، تطل من طياتها ريشة نعام أخذت بالاهتزاز حين شرع في الكلام. كان مظهره برغم غرابته يوحي بفارس مقدام مستعد للقتال الآن. بسط بين يديه دفتراً صغيراً، وفي عرض موجز سريع أكد أن مخازن السلطنة في الفاشر ونيالا ومليط ممتلئة بالذرة والدخن، وأن الجباريك في جبل الحلة وبرنجيَّة تكفي لتموين المقاتلين والأهالي وإن طالت الحرب إلى أمد بعيد، كما أكد أن خطة الجمع الضريبي تمضي كما رسم لها ولا تعترضها أي معوقات، وأن شيوخ القرى والفرقان ومعهم شراتي المدن وعمدها يبدون تعاوناً

كبيراً في سداد الإتاوات والضريبة، وفي الدفع بالمجندين الصغار إلى معسكرات التدريب. لم يأخذ عرض تقرير وزير التجارة وقتاً كبيراً من الحوار والنقاش، السلطان بدا أثناءه وكأنه يتجول بعيداً في مكان آخر، رغم اتقاد عينيه المتكاثف في كل لحظة "لماذا تأخرت شحنة البنادق القادمة من السنوسية، وأي عوارض أخرت دعم الباب العالي الذي وعدنا به؟". تقدم بعد الوزير قاضي القضاة إدريس الدنقلاوي، وطمأن المجتمعين على استتباب أمن الفاشر الداخلي والمدن الرئيسية والقرى والحلال القريبة. تحدث بعده المستشار تاج السر الجلَّابي شيخ السوق الكبير، مجدداً بيعة التجار والصنايعية وإعلان وقفتهم الكاملة وراء السلطان فداء له. كان الاثنان يعلقان سيفيهما ويلبسان الجلالبيب القصيرة ويضعان على رأسيهما نفس العمامة ذات العروة الطويلة المتدلية على العنق ملامسة لفقرات الظهر، تلك التي تذكر بجيش المهدية في الماضي القريب. بعد مرور ساعتين أو أكثر سمح السلطان للثلاثي "القاضي والتاجر ووزير التجارة" بالانصراف. وبقي مجتمعاً فقط مع قادة جيشه "انكسار أي رجل من هؤلاء يعني الهزيمة، اندحار العدو أمام أي رجل من هؤلاء الرجال يعني الانتصار". طلب السلطان من ابنه زكريا أن يقدم صورة سريعة لشكل الاستعدادات في معسكر برنجيَّة. فنهض الأمير الشاب، الذي بدا مُعتدَّاً بجسده القوي الفارع وأرومته السلطانية البائنة. قال:

ـ سيدي السلطان علي دينار، حفظك الله وأبقاك ونصرك على أعدائك الكفار الملاعين. رجالنا في معسكر برنجيَّة أكملوا حفر الخَنْدق والحمد لله. ولقد حفرناه في شكل قوس يستقبل الجهة الغربية حيث يتوقع أن يهجم العدو منها. وحسبنا عدد الرجال الذين سيكونون موزعين داخل الخندق على امتداده نصف الدائري لحظة الهجوم الأول، وأحصينا عدد الفرسان الذين يجب أن يكونوا خارج الخندق لمناوشة جيش العدو وجره ليسقط بين كماشتي القوس. سيدي السلطان علي دينار، حفظك الله وأبقاك، العدد الكلي للفرسان في معسكر برنجيَّة يوم المعركة – بمشيئة الله تعالى – سيكون ثلاثة آلاف فارس بخلاف المقاتلين الموجودين في معسكر جبل الحلة والفرسان المرابطين داخل فاشر السلطان. أما عدد البنادق الموجودة الآن في المعسكر فلا تتعدى 90 بندقية من بنادق الرمنتجون، لكننا نتوقع خلال الأيام القادمة وصول شحنة بنادق الكفرة السنوسية.

ظل السلطان يستمع لتقرير معسكر برنجيَّة الذي قلبه من قبل وراجعه عشرات المرات في اليومين الماضيين مع ابنه زكريا وقائد جيشه رمضان وَدبُرة، منذ وصول رسائل كشاف النهود التي أوضحت بشكل تقريبي عدد قوة تجريدة الجيش الإنجليزي المتحركة نحوهم، "لن تأتي بنادق السنوسية ولا بنادق الباب العالي بعد الآن، وعلينا مواجهة الرصاص وقنابل المدافع بصدورنا العارية". جلس

الأمـير زكريا وتحـدث من بعده القائـد ود إكرومة بعد أن سـمح له السلطان بذلك، فاسـتعرض بإيجاز آخر التطورات في معسكر جبل الحلة، واصفا التكتيكات الجديدة التي أدخلها الضابط المصري عبد الموجود بالمفيدة جداً للفرسان الذين باتوا يتعجلون الحرب من شدّة اكتـمال قدراتهم القتاليـة وارتفاع لياقتهم البدنية والثقـة العالية التي اكتسبوها بعد أن شارك أخيراً الفارس الشاب سيف الدين البرتاوي في تدريبهم وهو القائد المثالي والمحبوب بينهم. قال ود إكرومة:

_ سـيدي السـلطان عـلي ود زكريا حفظـك الله وأبقاك ونصرك على عدوك الكافر اللعين. رجالك يسـدون عين الشـمس بإذن الله، وسـينافحون عن الإسـلام ويدافعـون عن سـلطانك إلى آخر رجل فيهـم. نحـن جميعاً مسـتعدون الآن متى وقعت الحرب سـتجدنا في المقدمة.

في ذلـك الاجتـماع الذي اسـتمر منذ الصباح الباكـر إلى أن أعلن النداء عن موعد صلاة الظهر، حدد السـلطان مع قادة جيشه الكبار خطـط المعركـة وكيفيـة إدارتهـا وفي أي الميادين والسـاحات يجب أن تندلـع. أعلن السـلطان في ذلـك الاجتـماع أدوار كل قائد ووزع المهام: القائد رمضان وَدبُرة سيكون القائد العام على معسكر برنجيَّة والمسـؤول الأول عن إدارة المعركة المتوقعة هناك. القائد ود إكرومة سـيكون المسؤول الأول عن معسكر جبل الحلة، ومن مهامه تحريك الجنـود إلى معسـكر برنجيَّـة قبـل انـدلاع المعركة واسـتقبال طلائع

العدو الأولى. القائدان إسماعيل وكتونج سيكونان المسؤولين عن طلائع الجيش السلطاني التي ستستقبل جيش الإنجليزي الكافر على حدود كردفان وستدخل معه في مناوشات متلاحقة ومتقطعة بهدف إنهاكه وتأخيره إلى أن يصل أرض المعركة مرتعباً ومنهكاً، ثم ينضمان برجالهما إلى المقاتلين في معسكر جبل الحلة ومعسكر برنجيَّة. أما رئيس الجيش ود إبراهيم فسيظل مع السلطان في الفاشر يديران المعركة من هنا. "إذا مضت الخطط كما نأمل لن تطول المعركة كثيراً، يا... زكريا". كان السلطان يحدث نفسه وهو يحدج بطرف عينه ابنه زكريا الذي عاد جسده للتصلب الحديدي من جديد. قال السلطان:

_ لنمض إلى الجامع لأجل الصلاة والدعاء، ونبتهل إلى الله تعالى أن يهبنا النصر المؤزر بإذنه جل جلاله.

تناولت هادية بت المطر لقيمات من يد فاطمة بت كاتب السلطان. رشفت رشفة أو اثنتين من مشروب الكركدي واكتفت بذلك. اعتدل مزاجها قليلاً بعد الأكل وأحست بامتنان كبير لدعم فاطمة وحضورها إليها في هذا الوقت المتأخر نسبياً لخروج بنت من بنات الفاشر في هذه الأيام الحُبلَى بالغرائب والمفاجآت. سلمت شعرها لأنامل فاطمة، فشرعت بت كاتب السلطان في نقض خصلاته وإعادة مشطه في جدائل نحيلة تتدلى متجاورة ومتضامّة تصل حتى منتصف ظهر بت المطر، التي سلمت رأسها إلى الأنامل الخبيرة وهي تعمل بخفة في شعرها. أحست بخدر لذيذ يسري في جسدها، وحب كبير لفاطمة، ثم أحست بابتسامة حبيبها الفارس سيف الدين تملأ فضاء القطية وتشيع طمأنينة قدرية في نفسها "كله سينتهي وسنلتقي ونكون كما نود". استمرت فاطمة في تمشيط شعر صديقتها بت المطر وهي تدهنه بزيت الكركار المعطر بالخُمرَّة والمعجون بالدلكة؛ وتدندن بكلمات أهزوجة تدرك أن صديقتها ترتاح إليها كثيراً:

"يا قُمْري قُوقِي
وكَنْ وصَلتَ الحبيب قُوقِي لِيهوْ
قُولِيهوْ قِليبكْ هِنَاكْ مُستَنِي
يا قُمْري قُوقِي".

كانـت تغنـي بصوت هامـس جميل وهـي تنهي المسـاير الأمامية من شـعر بت المطـر وتحدق في الوجـه البيضاوي السـمح، مغمض العينين وابتسـامة حالمة على الفم الدقيق المرسـوم مثل ورود خَشْـم نَبـيّ «ما أجمل لونك الزيتوني يا هادية، ما أجملك وأنت هادئة وحالمة ومتيقنة». بمتبقي زيت الكركار المعطر مسحت لها وجهها فتحركت بت المطـر وهي تضحك: «كفاية». بكفها تمسـح الوجه مرة أخرى، فتضحـك بت المطر وتنكفئ بوجهها على الفراش، فتدغدها فاطمة فتضحك أكثر. قالت بت المطر لفاطمة بت كاتب السلطان:

_ فاطمة، بصدق، ألم تجربي الحُبّ، أم أنك تخدعينني.

كانـت تحاول إغلاق آنيـة زيت الكركار الزجاجية وأخذ فرشـاة الشـعر ومسلة المشـاط. تقرفصت على شملة الصوف المبسوطة أمام فراش صديقتها. نظرت إليها ضاحكة:

_ بالطبع أحببت يا هادية.

أنزلـت هادية قدميها الصغيرتين من الفـراش واقتربت بصدرها ووجهها من وجه صديقتها وسألتها بلهفة:

_ من يا فاطمة، تكلمي سريع.

ضحكت فاطمة وكأنها خجلى:

_ حبيت أبوي.

قذفتها بت المطر بإحدى الوسائد، ونهضت وكأنها تود خنقها بيديها، فرت من أمامها فاطمة، جرت وراءها، جرتا متطاردتين ضاحكتين داخل القطية البرحة، تبادلتا القذف بالوسائد والثياب، احتضنتا بعضهما وارتمتا على الفراش ضاحكتين. قالت فاطمة:

_ لم أحب مثلك يا هادية، لم ألتقِ بمن أحلم به بعد. من أريده لم يأت حتى الآن وأخاف ألا يأتي قريباً.. أريده يا هادية فارساً وشاعراً وفقيهاً ومغنياً ووسيماً وشجاعاً، أريده أسمر اللون، وردي القلب، أبوي النظرة، أمومي العاطفة، من أريده أريده حنيناً وعالماً ومقداماً لا يهاب أحداً.. هل تظنينه سيأتي يا بت المطر الجميلة؟

كانت هادية تتابعها ووجهها يتلون بالحب، تضحك مع كل وصف تضيفه، ويتسع حلمها مع كل أمنية تتمناها. قالت لها:

_ سيأتيك فارسك يا فاطمة، وسيأخذك معه على ظهر فرسه الشهباء، سيقرأ عليك أشعار الحب والفروسية، وسيعطر مسامعك بتلاوة القرآن.. وستكتبان سوياً يا فاطمة سيرتنا وسيرة السلطنة وتنثران الفرح في كل أرض دارفور العظيمة.

تضحك فاطمة وهي تستمع فرحة لحديث صديقة روحها وصفيتها «كم أحبك يا أجمل بنات المطر». تنزل من الفراش وتجلس مرة أخرى على شملة الصوف، تقترب منها وتقول لها:

_ ما الذي تحسين به نحوه يا هادية.. كلنا كنا نظنك ستتزوجين

أحـد الأمـراء والبعـض ظـن أن سـيدي السـلطان علي دينار نفسـه سيتزوجك.

تقول جملتها الأخيرة هامسـة وهي تتلفت بشـكل مضحك، بينما تسـحب هادية نفسـها من عـلى الفـراش وتنزل لتجلـس بجوارها، تمسك بيدها وتقول هامسة:

_ لا أعـرف كيـف أصف هذا يا فاطمة، لكني أحسـه راحة تحل جُوّاي، أحسـه سـكينة تشـملني كلما فكرت فيه أو حدقت في عينيه الوسـيمتين، أحسـه رجلي المُسَـطر في كتاب الأزل، نصفي المكتوب منذ آدم وحواء، الذي من دونه لا أكتمل.. أحسه الحياة التي لأجلها خلقت يا فاطمة، إحساس غريب وبهيج ينزرع في كياني كلما فكرت فيه.. لا معنى لأناي من دونه يا فاطمة السمحة.. هل تفهمينني؟

لم تسـتطع فاطمة بت كاتب السـلطان، أن تسـيطر على ترقرقات العاطفة التي حركت دموعها وجعلتها تَتحدَّر على خديها «يا لعظمة حبـك يـا حبيبة القلب، يـا لعظمة حبـك يا صفية الـروح». ضمت هاديـة إليهـا، وبكتا في صمت. تنبهتـا في بكائهما إلى واقـع المدينة في ثوب طوارئها واستعدادها للقتال. شعرتا وكأن شبح الحرب يتسلل إليهـما داخلاً من بين فَرَقَات قش القطية وعيدانها وبروشـها، يدخل عليهـما ويحيل المكان إلى برودة ماحقة. تضمان جسـديهما إلى بعضهما بشدة وتنشجان بكاءً.

خرجت فاطمة بعد تأكدها بأن هادية تماسكت وعادت إليها طبيعتها الحلوة من جديد، وتطهرت روحها الجريحة بالبكاء والكلام والأمنيات. تركتها داخل قطيتها بعد أن شدت من فوقها غطاء ثقيلاً، وبعد أن انتزعت منها وعدا بألا تفزع أمها الأميرة مرة أخرى بالعزوف عن الطعام والحياة. ودعتها وخرجت باتجاه البوابة الخارجية للقلعة. لم تجد أم هادية ولا سراريها الصغيرات أمام كرنكها مثلما تركتهن. تسحبت بخفة من أمام الكرنك، لا ترغب في مقابلتها مرة أخرى. وجدت رئيس حراس البوابة مستلقياً كما تركته على عنقريبه القصير أمام قطيته الصغيرة. نهض واتجه نحوها "إذا لمسني سأصرخ وأنادي كل الفاشر"، مدَّ يده:

_ مع السلامة يا فاطمة، انتبهي للطريق.. هل أكلف أحدهم بإيصالك؟

تمد يدها بعد أن تغطيها بطرف ثوبها وهي تجلس على الأرض:

_ لا شكراً، مع السلامة.

يفتح لها البوابة. الديدبانان الحارسان ما زالا في مكانهما يحدقان في البعيد. هواء بارد لسع وجهها فتلثِّمه بطرف ثوبها "شتاء هذا العام سيكون قارساً وقاسياً". تمشي متمهلة في الطريق المتدحرج إلى أسفل صوب حي القبة وهي تنزع قدميها بخفة من الرمال.

بعـد الانتهاء من صلاة الظهر مبـاشرة عاد عبد الماجد ودالفكي، كاتب السلطان، إلى غرفة الخزانات الثلاث، غرفة الوثائق السلطانية، الرسـمي منهـا الذي يخص إدارة السـلطنة الواسـعة بأنظمة قضائها وجيشها وضرائبها ومالها، والشـخصي الذي يتعلق بأسرة السلطان وزوجاتـه وأبنائـه الأمراء والأمـيرات. فَهِـمَ من صديقه المستشـار الجـلَّابي تـاج السر بعد خروجهما من المسـجد أن الحرب أوشـكت، وأن أوارهـا سيشـتعل قريبـاً، وأن الجيش الكافر بـدأ رحلته بالفعل من كردفان إلى دارفور، وأن الخطة لن تتبدل وستكون ساحة الوغى خارج الفاشر عند معسـكر برنجيَّة أو في معسـكر جبل الحلة. قدَّر، بعد أن أغلق عليه باب الغرفة بإحكام أنه سيحتاج من الوقت إلى ما بعد العشاء حتى يتمكن من ترتيب وإعادة تبويب كل هذه الأوراق والملفات والرسـائل التي تملأ الخزانات الثـلاث. حمد الله أن بعضها لا يحتـاج إلا لإعادة عَنْونـة وتغيير الغلاف الخارجـي "نظام مُحكم، كله مدون، كله مسـجل، ولا شيء يقبـع خارج الأوراق" قال ذلك وهـو يزيح أكـوام الأوراق التي أمامه ويـشرع في العمل سريعاً على إكـمال ملفات القضاء والقضايا النادرة، وتشريعات القوانين المحلية السـابقة واللاحقة لسـلطنة دارفور خلال تعاقب سـلاطينها الكثر، وطبيعـة المحاكـم الأهليـة في القرى والحـلال "الراكوبـة، الجودية،

العموديـة[1]". اشـتغل بنشـاط وأكمـل عمله في وقـت وجيز دون توقـف وإعـادة تبصر في ما يكتـب. وضع الملـف إلى جانب الملفات المنجـزة وتنـاول الملف التـالي (مكاتبات السنوسـية وأمـان الحدود الغربيـة). بدأ في إعمال يديه بذات السرعة السـابقة، لكنه لم يسـتطع أن يمنع نفسـه من التَّمعُّن والتَّوغُّل قليلاً في بعض الرسـائل المتبادلة ما بين السـلطان علي دينار والشـيخ أحمد الشريف السنوسي: "ولقد أخذتنا العزة الإسـلامية والحمية الإيمانية وعزمنا أن نقوم بحول الله وقوتـه وقدرته في نصرة دين الله لجهاد أعـداء الدين الكفرة معاندي الشريعة المحمدية الموجودين حولنا هنا في السـودان، وقريباً إن شاء الله تعالى نخرج هجرة للجهاد في سـبيل الله وسـيصل مسـامعكم ما يصير منا لأعداء الله". "نصرك الله وأيدك سـيدي السـلطان، أعداء الله يقتربون من أبواب سـلطنتك الآن، نـصرك الله وأبقاك". "والله إننـا في غايـة الفـرح بأنه للآن ليس هنـاك محل يعتمـد عليه في نصرة الإسـلام غير محلكم.. حتى كادت ذواتنا ترقص طرباً من صنيعكم الجميـل. إن شـاء الله لم نزل سـاعين في الـذي ينوبكم مـن الجبخانة ولـو كان مئـة ألـف". "لقـد وصلوا الآن يا سـيدي ومـولاي أحمد السـنوسي، وصلوا ولم تصـل حتى ولو جبخانة واحـدة، ولم يبق لنا سـوى بركاتك ودعواتك وكراماتك يا شيخنا فادع لنا بالنصر، ادع لنـا بالثبـات، فالجبخانـة لدى الكفـار ونحن لا نملك سـوى إيماننا

1- آليات صلح محلية لفض النزاعات بين القبائل في دارفور.

وذودنا عن حياض الدين". "الله يديم بقاءكم ويقهر أعداءكم ويمحق بسيفكم رقاب الطائفة الكافرة الخاسرة الماكرة. فإن الكفر قد عمَّ وطمَّ ولم يكن اليوم ملك على وجه الأرض غيركم فقد عززتم الدين وقهرتم الملحدين". "لكن خيولك يا سيدي ومولاي السنوسي، ستغتال بأيدي الطليان، وتظل وحيداً في صحرائك محاصراً ومناوشاً من جنوبك وشمالك؛ وداي تضغط عليك والبحر يضيق الأرض عليك، ستكون هنا بعيداً معزولاً، وسنكون، غداً، معزولين نواجه حصارنا.. فبركاتك ادعُ لنا.. ادعُ". كان يقرأ الرسائل المتبادلة، ويضبط أحيانا خط يده منسوخاً في مكاتبات السلطان إلى السنوسي، يخاطبها – الرسائل – ويحاورها ويبادلها الكلام وكأنه يحادث شيخ السنوسية أحمد، ناقلاً الكلام عن سلطانه علي دينار. أَتمَّ الترتيب والتوثيق. انتقل إلى كتاب (مضايقة وطمع الفرنسيين بعد دخولهم وداي). يمر سريعاً بعينيه على الأوراق "لا تتوقف كثيراً، فالوقت يمضي". يمرر الأحداث سريعاً أمام ناظريه: محاولات السلطان علي دينار لمناصرة أحمد الغزالي وتنصيبه حاكماً على وداي في مواجهة أخويه إبراهيم ودود مُرّة. تسلل الفرنسيين البطيء إلى وداي وقضاؤهم على رابح الزبير رحمة ومناصرتهم للسلطان عسيل. زحفهم صوب حدود سلطنة دارفور وتهديدهم لعرش السلطان علي دينار. القوة التي أرسلها السلطان علي دينار إلى حدود وداي ومحاولة السيطرة على مراكز الصراع السلطاني هناك

حتى ينأى ببلاده من مكمن الخطورة ويفلت من أطماع الفرنسيين. هجوم السلطان الاستباقي على قبائل المحاميد الأبّالة وتقتيله وأسره للكثيرين منهم، وذلك بعد سيطرة قوات الفرنسيين على آبشي. رتب رسائل معركة الاثنتي عشرة ساعة في حدود دار تاما مع دار قمر ضد الفرنسيين الذين هاجموا قادة السلطان علي دينار بمباغتة غير متوقعة وإنزالهم الهزيمة بهم ودحرهم إلى داخل حدود دارفور. أعاد من جديد تنظيم وضع الرسائل المتبادلة بين سلاطين باشا والسلطان علي دينار، وفقا لتاريخ الرسالة مرسلة إلى أو من: "وصلت إلى بلادي قبل أيام قليلة وتسلمت رسائلك المتعلقة بالاحتكاكات بين شعبك والقوات الفرنسية. لقد أصدرت الحكومة الفرنسية بالفعل أوامر مشددة للضابط المسؤول عن وداي بعدم عبور حدود دارفور الأمر الذي سيطبقه بلا شك. يجب أن تحذر شعبك بعدم العبور ولو ليادرة واحدة داخل حدود وداي التي هي الآن تحت حكم الحكومة الفرنسية" تحت التاريخ 5 يونيو – سلاطين من فيينا. "الشعب يحذر مِنْ مَنْ الآن وأمس وغداً". بتنظيم وتوافق يرتب الرسائل فوق بعضها البعض، يقرأ: "لقد كتبنا لكم مرارا عن عدوان القوات الفرنسية ضدنا وطموحهم نحونا لأخذ بلادنا. إننا لم نحصل على السلام من الفرنسيين. لقد تخطوا الآن كل الحدود واستولوا على ممتلكاتنا. لقد دخلوا واحتلوا دار ماسليت ولم يقاومهم أحد بالقتال، وما زالوا هناك يقتلون الرجال ويحرقون القرى ويسبون

النساء والأطفال وينهبون البضائع والأموال. لقد اعتقدنا في السابق أنهم يريدون فقط السلطان محمد صالح دود مُرة، ولكنهم بعد أن اعتقلوه فإنهم يريدون إشباع طموحهم بالاستيلاء على دارفور. إنني أضع هذا الأمر أمامكم وآمل – في حالة عدم قيام الحكومة بمعاقبة العدوان – وقفهم ومنع العدوان ضدنا. ولكن إذا كان فعلهم نتيجة لاتفاق بينكم وبين الحكومة الفرنسية فإننا نضع قضيتنا بين يدي الله. وستكون هذه آخر رسالة أكتبها لكم بشأن الفرنسيين". "الحليف الآن العدو، والعدو هو الحليف، والحرب سِجَال".

بعد أوبته من صلاة العشاء كان كاتب السلطان، قد بلغ به التعب منتهاه. "لم يتبق شيء، سوى الوثائق العائلية للأسرة السلطانية وعقود الأَنكِحة وسجلات الأبناء". جلس وراء المكتب وبدأ بتسجيل أسماء الزوجات وحصر أسماء الأمراء من الأبناء. "كل شيء مكتوب ولن يضيع تاريخ مدون أبداً".

اعتليا فرسيهما بعد أداء صلاة الفجر، خرجا من المعسكر والظلام يغطي الجبل وينتشر أمامهما سواداً بلا مدى. تركا وراءهما الإضاءة الباهتة للمشاعل تتراقص عند زوايا المعسكر الأربع. غاصا في الظلام وانطلقا صوب الشرق سالكين درب أُم دم – النهود. تركا الفرسين تجريان برتم رتيب وفتحا خياشيمهما لهواء الفجر العليل. كانا صامتين كل منهما يقبض على لجام فرسه ويترك له الخيار لينحدر في الدرب الصخري المشيد من طرق أقدام مئات الجنود الذين عبروا من هنا صوب المعسكر أو آبوا منه إلى ساحات القتال. عواء كلاب الحلال المتناثرة حول الجبل كان يأتيهما متقطعاً قبل أن تعلو أصوات الديوك الصائحة مع انسلال الظلام وانبثاق ضوء الصباح رقراقاً وشفافاً. أدارا اللجامين واعتليا صخرة عالية تنتصب وحيدة منفصلة عن الجبل، ومن هناك أخذا يحدقان في قرص الشمس وهو يصعد وئيداً من وراء غابات الكتر واللعوت البعيدة. قال الضابط عبد الموجود:

_ هذا من أعظم مناظر الطبيعة يا سيف الدين.

جذب الفارس سيف الدين لجامه وقال:

_ أمامنا نصف نهار فقط ومن الأفضل أن نتحرك الآن.

انحدرا صوب غابة الكتر واللعوت كثيفة الأشجار التي انبثقت من ورائها الشمس. تركا الفرسين تنطلقان بحرية في السِّكة

المنحـدرة. أبصرا بعيداً فتيات يحملن آنية فخارية في طريقهن إلى آبار المـاء، ورجالاً يسرجون حميرا وبغالاً ويسـتعدون ليوم عمل طويل، وأطفـالاً صغاراً يدفعون أمامهم سـعيَّة أغنام وضـأن، وأبقاراً قليلة عجفاء تتحرك صوب مرعى مفترض. دخلا الغابة كثيفة الأشجار. أوقفا الفرسين، تبادلا التحديقات لبرهة قصيرة من الوقت ثم جذبا اللجامـين وبدأ السـباق بين الفرسـين داخـل أجمة الكـتر واللعوت المتشـابكة وأشـجار السـدر والليـون والهجليج التي أخـذت تظهر متباعـدة ما بين أكمة وأخرى. انفصل سـيف الديـن أولاً وبدا كأنه سـيدور مرتـداً في طريـق العـودة بينـما انطلـق الضابـط المصري في الـدرب النحيـل المتعرج بلا توقـف. متمايلاً تفادياً لفروع وأشـواك الأشـجار كان سيف الدين يفكر أن رفيقه سيتوه حتماً حين يصل إلى منتصف الغابة ويجد نفسه بين أشجار القُضِّيم والسيَّال وهي تحتضن بأوراقهـا وأفرعها الأرض. قـررا فجأة ليل الأمس وهما يسـتدفئان بالنـار أمام كرنـك الضابط المصري أن يقطعا نهار اليوم سـفراً حتى تخوم بلـدة ودبندا داخل كردفـان، وأن يتأكدا من تقارير الكشـافين الأخـيرة بخصوص التجريـدة الإنجليزيـة، وإن كانت قـد اقتربت بالفعـل مـن حـدود دارفور أم أن الأمـر مجرد أوهام. أمـرا اثنين من القـادة الصغـار بمتابعة تدريبـات الرماية والبيـادة وتمارين الركض حول الجبل، وتحركا. بدأ الأمر عسـكرياً اسـتطلاعياً ثم تطوَّر بينهما ليأخـذ شـكل السـباق والتحـدي في أيهـما سـيصل حـدود الوادي

الفاصل بين الأرضين (كردفان ودارفور) قبل الآخر. أشواك شاردة جرحت وجه الفارس سيف الدين بجانبه الأيمن وأعاده الألم اللاسع سريعاً للتركيز مجدداً على تعرجات دروب الغابة المتداخلة والمتفرعة في تشابك بين الأشجار وكأنها ثعبان يتلوى. نفض من رأسه بقايا الصور المتمازجة ما بين الماضي والآتي؛ صور هادية بت المطر وردة القصر، وصورة الحرب الدائرة في أسفل الجبل والدماء النازفة. صارع منذ انتقاله إلى معسكر جبل الحلة هاجس موته قتيلاً بآلة حرب الإنجليز الكفرة وغياب وجه هادية إلى الأبد، غيابها عنه وعن أطفالها القادمين وزرعهما وقطية سكنهما البرحة في الملم أو مهاجرية أو هناك في خزان جديد. متمايلاً مع الفرس المدربة جيداً على الدروب الغابية أيقن في قرارة نفسه مدى تقديره لمنافسه الضابط عبد الموجود بما زرعه في داخله من رغبة في النصر وأمل في الحياة وتحدٍّ للجبروت والأوهام "كنت طيباً يا عبد الموجود وأنت تضحك وتحكي، كنت مخلصاً وأنت تختبر الرجولة ومشاق الصبر والاحتمال، كنت حكيماً وأنت لا تسأل لكنك تدرك أن القلب همّ والرأس أوجاع وتهبني أملاً من حكاياتك المنثورة أسفل كرنكك الحميم". خرجا سوياً في توقيت واحد من الغابة، تقابلت الفرسان لاهثتين عند الجانب الآخر من الوادي في أرض كردفان. حدقا في بعضهما في صمت ثم انفجرا بالضحك:

_ كيف تعرف هذه الدروب الغابية العويصة؟

سأل الفارس سيف الدين البرتاوي الضابط المصري الهارب عبد الموجود، فأجابه:

ـ يا رجل، هل بت تنسى سريعاً.. ألا تذكر، لقد أخبرتك أكثر من مرة، لقد كنت حاكماً على كل هذه السهوب والغابات والرمال والوديان.. هذا بالطبع قبل هروبي الكبير.

انفجرا بالضحك مرة أخرى، وهم سيف الدين بسؤاله عن أسباب هذا الهروب، لكن عبد الموجود جذب اللجام ولكز الفرس وانطلق أمامه. تركا الفرسين عند بئر على أطراف الوادي، تسلقا ربوة رملية عالية ومن هناك اخترقا بنظراتهما ترقرقات سرابات الظهيرة وحدقا في معسكر التجريدة الإنجليزية المشيد في أطراف بلدة ودبندا. قال الضابط المصري:

ـ الوغى.

سأله الفارس سيف الدين البرتاوي:

ـ ماذا؟

ـ الحرب.

ـ نحن لها والله أكبر ولله الحمد.

بدا عبد الموجود وكأنه يحصي عدد الجِمال التي كانت تقع في المربع الأول من مرمى بصرهما:

_ هذا العدد كبير فعلاً لحرب مثل هذه.

سأله سيف ماذا يحملونها.

_ المدافع، حاصدات الروح وحاسمات المعارك.

بقيا في مكانهما ذاك نحو الساعة، الرمل تحتهما حارق والسراب يتكاثف متراعشاً أمامهما في المدى البعيد. أبصرا جنود تجريدة الإنجليزي وهم يتنقلون نشطين بين الخيام، وبعضهم يجري تدريبات ما، وآخرين منهمكين مع الجمال وحمولتها الثقيلة، يعلفونها أو يفعلون شيئاً ما بدا لهما غائماً من على البعيد. انسحبا متراجعين وهما يبصران مجموعة صغيرة من الخيالة تتحرك في اتجاه قد يقود إلى مكانهما. أسرعا صوب الوادي، قفزا على ظهري الفرسين وانطلقا صوب الغابة من جديد.

في آخر ليل يومهما ذاك والإنهاك يقضم من جسديهما، تمددا على برش سعف صغير أمام كرنك عبد الموجود. أشعل جندي صغير السن النار أمامهما وغذاها بعيدان الحطب. تناولا بلا ارتواء من شراب الكونجومورو، هدية إحدى نساء الحلال القريبة التي مرا بها مساء اليوم. دندن الفارس سيف الدين البرتاوي بمقاطع من أغنية قصيرة وعيناه تحدقان في النجوم التي ترصع السماء:

"رَاكُوبةْ والقُطيَّةْ وزَرِيبة السَّعيَّةْ

نَاسْ الحِلَّةْ..

بَنَاتْ دُورِيْ اَقْعُدُوْا عَافْيَةْ

أَنَا مَاشِيْ بِتانْ مَا جَايْ

مُوتَ الْحَرْبَةْ تِرْكَتْنَا وَالْجَرِيْ مَا عَادَتْنَا"

غنى سيف الدين بحنين ونشوة واستمع عبد الموجود لغنائه مغمض العينين، مسترخياً سابحاً مع حلاوة الصوت ومسرجاً مراكب الحنين مع رنَّة الأسى المتبلورة مع النَّغم الخفيض، لم يفهم بعض الكلمات لكنه أحس المعنى، وأدرك عمق الوجع الذي يسكن هذا الفارس الشاب المواجه بموت مؤكد بعد يوم أو اثنين أو شهر لو طال موعد دوي المدافع وتفجر داناتها. بعد صمت طويل قال عبد الموجود وكأنه يحدث نفسه:

ـ لم أكن أنوي قتل الجنود يا سيف، استفزني الضابط الإنجليزي اللئيم وأصرَّ على إهانتي أمامهم، تمردت فقيدوني بالحديد، لم أنوِ قتلهم فقد كانوا صغاراً وطائشين، لم يدركوا خطورة أن تطلق يدي ضابط متمرد تدرب على أقسى أنواع القتال والعراك، وكأنها ضربة واحدة؛ أندهش حتى أنا حين أتذكر هذا، الثلاثة أمامي غارقين في دمائهم والرابع يجري نحو الحصان وأنا أنشّن نحوه. طاخ.. مات. لكن استفزني المفتش الإنجليزي اللئيم وأخطأ الجنود بتقييد ضابط كانوا بالأمس القريب ينصاعون لأوامره... اليوم ذكرى وحنين وغداً حرب ووعيد.. يا سيف الدين.

(5)

تجريدة الإنجليزي

«يقرُّ السردار أن تمركز قواتنا قد فاقم الوضع ولكنه يعتبر أن الوقت ما زال في صالحنا وهو يعتقد أنه بمجرد دخولنا إقليم دارفور فإن اللحظة السايكولوجية للاندفاع إلى الفاشر سترتفع، وبالتالي فهو يرغب في تأجيل عبور الحدود حتى يصبح الإعداد العسكري قد تم تجهيزه كاملاً للتقدم الفوري في أول فرصة وأن نكون قادرين على السيطرة على الوضع السياسي الذي قد يتطور –بمجرد اشتباك القوات – إلى اتجاه مغاير لسياستنا ونوايانا الحالية»

سيمز إلى ماكمايكل 18 فبراير 1916

أنا الشيخ الفاتح عثمان الحسين، سوداني الجنسية، من الأشراف، درست القرآن وعلومه في الجامع الأزهر بمصر ومُنحت شهادة المشيخة قبل ست سنوات، التحقت بالعمل شيخاً ومعلماً دينياً بحكومة السودان بعد عودتي مباشرة إلى الخرطوم، أي في العام 1910. تم إلحاقي بتجريدة الجيش الإنجليزي المتجهة لمحاربة سلطان دارفور علي دينار بعد أن طالب بذلك قومندان عام التجريدة والسواري والبيادة الراكبة، حضرة صاحب العزة الأميرآلاي كلي

بك، الذي رأى ضرورة أن يرافق الحملة رجل دين حتى يبين للناس من مسلمي تلك البلاد الدواعي الشرعية لإسقاط ومحاربة السلطان علي دينار. انضممت إلى التجريدة منفرداً في مدينة الأبيض، والتقيت بحضرة صاحب العزة الأميرآلاي كلي بك، وبقية قواده من الضباط على رأسهم هدلستون والمصري قنديل، بدأت بتسجيل هذه المذكرات اليومية بعد أن وصلنا إلى مدينة النهود وصرت عضواً في قيادة التجريدة، أحضر كل الاجتماعات وأشارك بالمشورة وإبداء الرأي في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بأمر الناس في تلك المناطق التي سنعبرها للحرب، وإن كانت معرفتي أنا نفسي بها ضعيفة، ومع ذلك أَبديتُ عكس ذلك.

كانت الحملة العسكرية لتجريدة الجيش الإنجليزي تعتمد بالأساس على قوة (البطارية المكسيم الجمالي الخصوصية السريعة)، إضافة إلى الوحدات الأخرى، التي تجمعت في مدينة النهود قبل التحرك النهائي صوب أرض دارفور، كانت قوة كبيرة متعددة الوحدات وحديثة التسليح ورجالها مدربين على أعلى درجات الانضباط العسكري ويتمتعوت بقدرات قتالية رفيعة. الآن – بعد هذه السنوات وأنا أعيد ترتيب هذه اليوميات _ حين أتأمل حجم تلك الوحدات العسكرية وهي تعسكر قريباً من جبل حيدوب بمدينة النهود «بطارية المدافع الجمالي، أورطة البيادة، البلوكات السودانية، بلوكات الهجانة، أورطة العرب، جنود سودانيون

ومصريـون وقادة إنجليـز ومصريون... الخ»؛ حـين أتذكر الأرض الشاسعة التي جعلنا منها معسكراً لنا، والاستعدادات المستمرة ليل نهـار لرفع الجاهزية لـدى كل أعضاء القوة بمن فيهم شـيخ القرآن؛ أنـا، أتسـاءل – وأنـا في منفى روحـي الحالي بعد ذهـاب الإنجليزي وانكشـافي أمام ذاتي _ هل كان الأمر يستحق كل هذا الإعداد وهذه الضجـة؟ نسـيت أن أذكـر أن الطائـرات والعربـات كانـت كذلك ضمـن القوة المعـززة للحملـة وذات الدفع الضارب في حسـمها _ هل كان جيش السلطان علي دينار بتلك الخطورة التي تستدعي هذا العـدد الكبير من مدافع المكسـيم القاتلة؟ هـل صدقنا بالفعل – كل من شـارك في الحملة – أن «علي دينـار تعالى على الحكومة ومنع دفع الجزية السنوية، ولم يتوقف عند ذلك فقط بل أعلن انضمامه إلى ألمانيا وتركيا والمجر في الحرب العالمية الكبرى ليكون ضمن معسكر أعداء الحلفـاء؛ أعدائنا، لذا حـق عليه العقاب والحرب»؟ هل كنا نسـابق فعـلاً معسـكر الحلفـاء قبـل أن يتمكنوا من الاسـتفادة مـن قدرات وأرض السـلطان، أو قبل أن يمدوه بالسـلاح والمدافع ويصبح قوة خطـيرة وضاربة تهدد الحكومة الإنجليزيـة – المصرية في الخرطوم؟ أتسـاءل الآن أمـام أوراقـي المصفـرّة والإجابات متراوغـة تأبى أن تسـتبين. تُبلبلنِـي وتؤرقني ذكرى المعـارك العاصفة التـي خضناها في سـفح جبل الحلة وفي أرض برنجيَّة ومشـهد الاستبسـال البطولي لجنود السـلطان علي دينار وقادة جيشـه وأبنائه الأمراء؛ رغم الموت

المندفع دوياً من المدافع وصَفيرِ رصاصات بنادق البارود.

إذن، في النهود اجتمع بنا قومندان عام التجريدة والسواري والبيادة الراكبة، حضرة صاحب العزة الأمير آلاي كلي بك، وكان ذلك في يوم 15 مارس من العام 1916 الموافق 10 جمادى الأولى 1334 هجرية، أي قبل أربعة أيام لخروجنا من معسكر النهود متوجهين إلى أرض دارفور لمحاربة سلطانها. حضر الاجتماع كل قادة ورؤساء الوحدات المحاربة_ وبالطبع حضرت باعتباري رجل الدين الأول والأوحد في الحملة _ لكن سأذكر منهم هنا صاحب العزة القائمقام هدلستون بك، قائد عام الهجانة، الضابط المراوغ ومن سيكون له في مقبل الأيام الدور الحاسم في القضاء على فلول جيش السلطان علي دينار وفي مطاردته وقتله شخصياً. وفي هذا الاجتماع أيضاً عرفنا بقصة الملازم أول المصري عبد الموجود – الذي سيقتل في صحارى البديات لأجل مسدس وقميص حربيين_ وبحسب ما روي لنا وجد معاملة قاسية من قائد بلوك الهجانة البكباشي الإنجليزي مكالين؛ فقام بتزوير أمر تحرك إلى دارفور وهناك في الحدود الفاصلة بين المديريتين (دارفور وكردفان) قتل الضابط عبد الموجود جنديي حراسة حدود وفر هارباً إلى داخل حدود السلطنة، وأعلن انضمامه إلى جيش السلطان علي دينار، الذي كرَّمه وجعله من قادة جيشه ومستشاريه المقربين. تسامرنا بقية ليلنا تحت قبة السماء ثم تهيأنا لسفر طويل، وحرب خاطفة وقاسية قادمة. لكن قبل الخوض

في تفاصيل تحرك التجريدة إلى فاشر السلطان – كما يسميها أهلها ـ يجدر بي أن أذكر أمراً وقع لي ووجدتني دونته ضمن ما دونت في هذه اليوميات، ففي أيامنا القليلة التي مكثناها في عاصمة المركز مدينة النهود، رافقت حضرة صاحب العزة الأمير آلاي كلي بك، في زياراته إلى أعيان المدينة ورجال الدين الموجودين فيها، فالرجل كان يهتم إلى درجة كبيرة بترك انطباع إيجابي لدى سكان البلد والأهالي عن الحملة وأغراضها – كما سبق وذكرت – التقينا كثيراً من رجالات البلد وكبرائها وتحاورنا معهم كثيراً وبعضهم احتفى بنا وأولم لنا، والبعض الآخر عاملنا بتحفظ لا يخلو من جفاء، ومن هؤلاء أذكر أحد رجال الدين وفقهاء المدينة واسمه الفكي جلالين، هذا الرجل الفقيه ومن دون البقية رفض مقابلتنا في مباني الحكمدارية، كما لم يتفضل بدعوتنا إلى بيته أو إلى قبة مسجده، وكنا سنمضي ونتركه دون أدنى التفاتة – فهو لم يكن يمثل أية جهة سواء دينياً أو قبلياً يمكن أن تؤثر في مسار حربنا القادمة، هذا ما رأيته أنا لكن القائد كلي رأى غير ذلك وأمرني بالالتقاء به. وحتى لا أُطيل عليك أقول إن الرجل في حد ذاته لم يلفتني في شيء رغم حديثه عن حرمة دم المسلم وتلميحاته المُبطَّنة إلى دور الخيانة الذي ألعبه – كنت مغروراً بالفعل وأرى كل شيخ قروي في مثل سنه جاهلاً وساذجاً – لكن ما لفتني حقاً وشدني طوال الجلسة التي جلستها مع الفكي جلالين وحواريه في مسجده بحي تاما، شخص صموت أسمر الوجه

وسيمه يتقد الذكاء من عينيه كان طيلة الجلسة يبدو وكأنه يستعد للرحيل الآن. كنت أحسه يركز على كل كلمة تخرج من فمي، على كل إشارة أرسلها صغرت من حيث الأهمية أم كَبُرت، سألني سؤالاً واحداً مباشراً وحاسماً: «متى تتحركون»، وحتى الآن لا أدري بأي قوة جاذبة جرني إلى إعطائه الإجابة السليمة قبل أن يغادر المجلس: «بعد غدٍ». خرج ولم يعد ولكنني سأبصر وجهه بعدها في خِضمِّ النار والتقتيل في أرض برنجيَّة قبل أن ألتقيه بعدها بأعوام طويلة في مناسبة زواج أحد تلامذتي النجباء واسمه حسين بخيت القرعاني، وجدته على يمين تلميذي بذات عينيه الذكيتين وشعيرات بيضاء قليلة قد زحفت على شاربه ولحيته، عرفته دون أي صعوبة وعرفني بنفسه بلا مواربة: كشاف السلطان علي دينار قديماً في دروب النهود وسكك الضعين، المقرئ سليمان الطاهر.

تحركنا من مركز النهود في يوم 16 مارس 1916 الموافق 11 جمادى الأولى 1334 هجرية، تركنا جبل حيدوب الشامخ وراءنا يتبادل مع الغمام الألوان السماوية. اتخذنا طريق الرمل المسمى (دريب الريح) واتجهنا غرباً في سكة حملتنا العسكرية الظافرة. خلال أيام المعسكر القصيرة بالنهود كنت قد تعرفت على ثلاثة ضباط مصريين وتقربت إليهم كثيراً، هم اليوزباشي علي إسلام أفندي، والملازم أول حسن أفندي الزيدي والبكباشي حسين أفندي قنديل، وثلاثتهم يتبعون لقيادة بطارية المكسيم الجمالي السريعة،

وأرسلوا خصيصاً من مصر للمشاركة في التجريدة والإشراف على قوة بطارية المدافع المكسيم. وجدتهم أقرب إليّ من البقية – كنت أنظر إلى الجنود السودانيين بعين العالم المُتعَالي ويا أسفي – فالضباط الإنجليز لم تكن تروقني جلساتهم التي لا تخلو أحيانا من المُسكر والعياذ بالله. جذبت لجام بعيري وانضممت إليهم وصرت وكأنني فرد من قوة مكسيم الجمالي السريعة، أتحرك لحركتهم وأتوقف لتوقفهم إلى أن نصل حدود دارفور وإلى أن تستعر المعركة النهائية.

بعد ثلاثة أيام من المشي متوسط السرعة وصلت القوة إلى بلدة صغيرة تدعى ودبندا، منزرعة وسط الرمال ومحاطة بنقاط متباعدة من أشجار الكتر واللعوت، أهلها من عرب الحمر سريعو البديهة أقوياء الجسد، تكاد تقع في مركز وسط بين عاصمة المركز الكردفاني النهود وعاصمة سلطنة دارفور الفاشر. في ودبندا ألقينا رحالنا وعسكرنا لبعض الوقت، وفيها انفصلت عنا سِرية صغرى وتقدمتنا بينما ظللنا نحن – السرية الأكبر – مرابطين في موقعنا. كانت آبار المياه القليلة على الطريق قد تمَّ ردمها بالطين والحجارة والرمل من قبل كشافة السلطان علي دينار وجواسيسه والموالين له من الأهالي في تلك المناطق؛ عانى الجنود قليلاً، بسبب قلة ماء الشرب في الأيام الأولى، كما كان علينا أن نوفر بشكل خاص المياه للخيول والبغال، أما الإبل فهي سفن الصحراء وأعدت تماماً لهذا الدور العظيم. حاولت في هذه البلدة الصغيرة التواصل مع شيوخها وبعض

أهلهـا، ووجدتهـم غير ميالين للخوض في تفاصيـل الحرب المتوقعة وإن أبـدى بعضهـم موافقتـه للقضاء على قوة السـلطان عـلي دينار، الذي تغزو قواتـه أحياناً مناطقهم وتفرض عليهم الإتاوات بالقوة. بالطبع رفعـت تقارير بذلك إلى قائد التجريدة كلي، الذي بدا لي مُمتناً لهذه الأخبار الأولية المبشرة بمسـاندة الأهالي. بقية الأيام قضيتها في حوارات مطولة مع أصدقائي الضباط المصريين لاسـيما مع حسـين قنديل ذي الميول الأدبية المحب للشـعر العربي القديم، والمتفقه دينياً إلى حـد مـا. وهنا يجـدر أن أشـير أيضـاً إلى أنني لاحظـت أن جنود الحملـة كانوا مرتاحي البال إلى حد بعيد وواثقين من النصر للدرجة التي تدعوهم للاحتفال حتى قبل خوض المعارك فعلياً.

في يـوم 19 مـارس 1916، الموافـق 14 جمـادى الأولى 1334هجريـة كنا قد تركنـا بلدة ودبندا وراءنـا وتحركت كل القوة إلى أن نزلنا في بلدة أخرى صغيرة تسمى حلة (الدم جمد)، مكثنا فيها يومـاً كاملاً، أرحنا الأجسـاد والجمال، وفيها أمـر القائد كلي بتوزيع منشـور على أفـراد كل وحدات التجريدة، شرح فيـه دواعي الحملة وأسـباب الحـرب على السـلطان عـلي دينـار. وقد احتفظـت بورقة مـن تلك المناشـير كتب فيها: «إن القصد مـن تحرك القوة هو ضرب السـلطان علي دينار، حيث إنـه تمرد على الحكومـة بامتناعه عن دفع الضريبـة – الجزيـة المعتادة – وانضـم إلى أعداء الحلفاء مـع أنه تابع للحكومة وبلاده جزء متمم للسودان الإنجليزي المصري». انتهى.

يـوم 20 مارس 1916 الموافق 15 جمادى الأولى 1334 هجرية شـهد أول مواجهـة خفيفة بين سرايـا التجريدة وجزء مـن القوات الأمامية الاستطلاعية لجيش السلطان علي دينار، حدث ذلك ونحن نقـترب بجِمالنا ومدافعنا وتعدادنـا الكبير من بلدة أخرى في الطريق إلى جبل الحلة تسـمى (أُمْ شَـنقَا). ظهرت قوة الاستطلاع السلطانية الصغـيرة (50 راكبـاً تقريبـاً)، وحاولوا مناوشـة مقدمـة التجريدة لكنهم تشـتتوا سريعاً وولوا الأدبار بعـد أن أطلقت مقدمة تجريدتنا من الفرسـان الراكبة نيران البنادق تجاههم وطاردوهم لمسافة طويلة إلى أن غابوا وراء التلال الرملية.

في أم شـنقا، أخبرني البكباشي حسـين قنديـل ونحن نتجول عصراً ونستكشـف خندقـاً عميقـاً وقديماً، بأنه يحـس بتفاؤل كبـير، وأن كل مخاوفه بخصـوص الحرب ومواجهـة «الجنود المتوحشـين» قد زالت، مبعث تفاؤل حضرة البكباشي هو معرفتنا بعد استفسار وسؤال ملحين بـين جنـود التجريدة القدامى من السـودانيين، أن هذا الخندق العميق الـذي يلتف مثـل الثعبان حول التلة العالية، التـي تم اختيارها لتكون مقراً لمعسكرنا، مما وفر لنا حماية كاملة من كل الجهات؛ أن هذا الخندق يعود في حقيقته إلى معسكر قديم للجيش المصري التركي حين حدثت مواجهة ودارت حرب ضد سـلطنة دارفور في عهد الخديوي إسماعيل باشا. قال لي البكباشي ونحن نجلس على حافة الخندق العشبية:

_ أشعر أن هذه إشارة ربانية بأن النصر المؤزر حليفنا بإذن الله.

عـلى العكس منـه، كنت بـدأت أحس بالانقباض وأسـأل نفسي لأول مرة: «لماذا تأتي الجيوش من أقصى البعيد لمهاجمة الناس الأبرياء وتقتيلهـم في أماكنهم؟». الشيء المهم الآخر الذي جرى في أم شـنقا أنه أتيـح لي بحكم مرافقتي لسرية البطاريـة الجمالي، أن أحضر تجربة فريـدة تمت بإشراف قومندان البطاريـة، للتأكد من صلاحية المدافع ومـدى جاهزيتها، والحمد لله وجدناها جاهزة تماماً للحرب والقتل وتشتيت جيش العدو المتمرد.

قبـل أن نتحـرك من أم شـنقا لمواصلة خط سـيرنا النهائي، تركنا وراءنـا بعـض القوة مـن الهجانة و2 جـي بطارية، وذلـك احتياطياً لحفـظ خط سـير الرجعـة. ونحن نتهيـأ للخروج من أم شـنقا أدرك الجميـع أن الحـرب على وشـك الانـدلاع، فأمامنا فقـط جبل الحلة بحاميتـه الكبيرة وجيشـه مُتخلِّـف العدة والعتاد، ومـن ثم مواجهة جيش السـلطان عـلي دينار في المعركـة النهائية والحاسـمة، التي من المقرر أن تقع في بلدة برنجيَّة.

حدثت معارك عدة في الفترة من 20 مارس إلى 10 مايو 1916، التـي توافـق 15 جمـادى الأولى – 7 رجـب 1334 هجرية، كتائب صغيرة وسريعة الحركة واجهت مسار التجريدة وحاولت اعتراضها قبل أن نصل إلى جبل الحلة، المعسكر الأكبر لجيش السلطان والموقع المثـالي الـذي ترمي قيادة التجريدة للسـيطرة عليـه أولاً قبل التَّوغل نحو معسكر برنجيَّة، ثم عاصمة السلطنة الفاشر. ما أردت نقله هنا

بالقفز على تلك الأحداث المتوالية والمعارك الصغيرة التي واجهت مسيرة الحملة، هو استقرار رأي قيادة التجريدة على هبوط الطائرات في المطار الحربي الذي أُعدَّ لها عند سفح جبل الحلة، بعد أن أحكمنا سيطرتنا عليه وطردنا جند السلطان منه. ففي هذا التاريخ تماماً (10 مايو) هبطت أولى الطائرات المساندة للتجريدة في تقدمها. هبطت الطائرة فجراً «كنت قد صليت الصبح للتو وأممت من أراد الصلاة جماعة». هبطت الطائرة ونزل منها الملازم ف. بيلامي والملازم ثاني ج. س. سليزور وكانا يلوحان بعلامة النصر وعلى عيونهما المناظير الزجاجية. وكنت أبصر لأول مرة في حياتي نهاية تتكون أمامي متضعضة في غَبَاش ذلك الفجر قبل تحققها واقعاً. عرفت أن هذه الكائنات «الطائرات» والمدافع المحمولة على ظهور الجمال قد حسمت الأمر وانتهى منذ أزل مسطور ومكتوب.

حتى تلك اللحظة، أعني ونحن في جبل الحلة بعد أن هزمنا قوات السلطان المتمركزة هناك وأجليناها من معسكر التدريبات والتجهيزات، الذي قيل إنه كان تحت قيادة الضابط المصري الهارب عبد الموجود – لم أقابله قط في حياتي وعلمت بعد سنوات أنه عاد إلى عاصمة السلطنة الفاشر بعد معركة جبل الحلة ومنها سافر إلى الكفرة برسالة من السلطان علي دينار إلى السنوسية لحثهم على إرسال الدعم لجيش السلطان، إلا أنه اغتيل في صحارى قبيلة البديات حين هاجمه رجال القبيلة بهدف نهب مسدسه وقميصه

الحـربي وجمله السريـع- أقول حتى تلـك اللحظة لم أمـارس أدواراً حقيقيـة تعكس واجبات مهمتي الدينيـة الجليلة؛ صحيح اجتمع بي القائـد كلي أكثـر من مرة ونحن نقترب من حـدود دارفور، وبعد أن دخلناها تبادلنا حواراً مطولاً عن المسـوغات التي سأقدمها للأهالي وحتى لمن نأسرهم من الجنود، إلا أنني لم أجلس سوى مرة أو اثنتين مـع بعض الأهالي الذين ربما دفعهـم الفضول فقط لانتظارنا والبقاء أمامـي للاسـتماع لتلك الترهات التي أخـذت أرددها عن طاعة ولي الأمر وظلم السـلطان علي دينار لشـعبه و..و..و، كان هذا في بعض الحـلال والقـرى المتناثـرة حول جبـل الحلة، التـي زرتهـا برفقة قوة صغيرة من الخيالة ورافقني من باب الفضول البكباشي حسن قنديل «صلى بنا المغرب في إحدى القرى الصغيرة، وكان صوته حلواً وعذباً وهو يرتـل الآيات القرآنية، كانت صلاة المغـرب»، وفهمت منه أنه يَعِي جيداً مدى تأثير الغريب على بسـطاء المسـلمين في أي مكان من الأرض، لا سـيما إن ادعى - الغريب _ أنه من أرض الحجاز، وهذا مـا ادعـاه. ونحن نتوغل أكثـر في حدود السـلطنة وجدتني قد ذبتُ تمامـاً في جيش التجريـدة، متحركاً برفقة البكبـاشي قنديل وبطاريته أينما ذهبوا. أمر القائد بانفصالنا عن الجيش، فتقدمنا إلى بلدة اسـمها بـروش، ومنها إلى أخرى اسـمها أم زريقـة، إلى أن وصلنا أم كدادة، وهـي أحد المراكز الإسـتراتيجية في عملية تقدمنا. وحتى هنا لم تكن المقاومة السلطانية تذكر، مجرد مناوشات هنا وهناك، أخطرها دارت

أسفل جبل الحلة واندحر فيها جيش السطان متراجعاً ومنهزماً.

في يوم 2 يوليو من العام 1916 ميلادية الموافق الأول من رمضان 1334 هجرية. كانت الحرب قد انتهت وكل شيء أغلق، بما فيه نفسي التي كانت مفتوحة على أمل في الأبد. في هذا اليوم «أستعيده هنا من الذاكرة، بعض أوراقي تمزقت والبعض منها أظنه سُرق!» استجوب البكباشي قنديل أمامي الأمير الخليل ودإكرومة، أحد قادة السلطان علي دينار المقربين والمخلصين والحاكم بأمره في مناطق «أم شنقا وجبل الحلة وبروش وأم كدادة وأبيض» أي كامل الجزء الشرقي من جغرافيا السلطنة، الجزء المقترن بكردفان والمعبر الأول الذي عبرت منه تجريدتنا، وأصابت بنادقها ومدافعها جسد القائد الفذ – حقيقة وليس مجازاً – وأقعدته جريحاً حتى تم حمله على عنقريب وإحضاره أمام البكباشي حسن قنديل ليستجوبه بنفسه. كنت أقفُ قريباً، لم أشارك في الحوار الذي دار بينهما «توقفت عن كل قول منذ انتهاء معركة برنجيَّة وإبصاري لأول مرة في حياتي أجساد الرجال وهي تتناثر أشلاء تحت وقع دوي المدافع». كنا نجلس أمام خيمة حضرة البكباشي قنديل، أحاط الحراس الأشداء بالقائد الجريح وهو عاجز عن الحركة لشدة إصابته، لم يكن يئن أو يظهر ألماً رغم إصاباته المتعددة «اخترقت طلقتان ظهره وصدره واستقرت ثالثة في ساقة بينما ضرب سطح دانة ظهره وشله تماماً». لم يكن مرتعباً أو منكسراً وهو يحدق في من حوله بقوة وثبات جديرين ببطل

حقيقي قدم روحه فدى لسيّده السلطان ولما يؤمن به من مبادئ. قال له البكباشي حسن قنديل وهو ينحني على مرقده في العنقريب:

_ سلطانكم كان جاهلاً سكيراً، هذا فضلاً عن إرهاقه الرعية بالظلم والجور والحيف ومع ذلك لا يخاف الله.

_ إن ما بلغكم عنه لزور وبُهتَان.

أجابه القائد وداكرومة وهو يحدق في عيني حضرة البكباشي، ثم أضاف:

_ لو كان سكيراً كما تقول لما أمكنه أن يدير دفَّة هذا الملك الواسع ما يربو على التسعة عشر عاماً بدقة وإحكام. ولو كان فظاً ظالماً لانفض الناس من حوله.

دار حوار طويل بين الاثنين، لم أقترب كثيراً منهما، أشار إليَّ البكباشي قنديل لأشارك في عملية الاستجواب لكنني هززت رأسي فقط وبقيت على مسافة منهما في مكاني، من ورائي جنود ومن أمامي آخرون. كنت أحدق في الرجل القائد الأمير وهو يتمرغ في دماء نهايته المؤكدة ورغم ذلك يتمسك بأهداب كبريائه ويقول هازئاً للبكباشي قنديل وهو يبتسم:

_ السلطان كان رؤوفاً رحيماً برعيته كريماً جواداً كثير الإحسان مسلماً تقيّاً فيه كل صفات الخير والبر والرحمة.

ارتفع فجأة أزيز الطائرة وغطى على كلامهما، رفعت رأسي نحو السماء، كانت تحلق فوق رؤوسنا بالضبط، دارت ثلاث أو أربع دورات مشكلة بدخانها الأبيض أشكالاً ثعبانية كثيفة قبل أن تتوجه وتحط في المهبط أسفل الجبل. كانت عائدة تواً من قلب فاشر السلطان بعد أن أفرغت قنابلها هناك.

(6)

مدافن السلاطين

«كان قصر السلطان هو قصر الحمراء السوداني، إن بيت الخليفة في أم درمان يعد كوخاً بالمقارنة مع هذا القصر. كانت هناك حدائق صغيرة ظليلة وأحواض صغيرة للأسماك، وأروقة مقنطرة وصفوف من الأعمدة ومخازن وكل أنواع البناء. وكانت الأرضيات مغطاة برمل فضي نظيف. كما إن قش السقف كان ذا منظر جميل ويبدو كما لو كان مقصوصاً بمقص. وكانت الحوائط مدهونة بشكل جميل باللون الأحمر والحوائط الداخلية للصالات مغطاة بآيات قرآنية بخط جميل أو بتصميمات على شكل رقعة الشطرنج. كما استخدم أفضل أنواع البروش والخيزران في السقف. كما وجدت تعريشة من الأبنوس بدلاً من الحوائط الداخلية وكذلك في أرضيات أجنحة الحريم – تحت الرمل الفضي – منقوعة بالعطور».

ماكمايكل إلى مساعد مدير التعليم 27 يونيو 1916

استقبل السلطان علي دينار، أول شعاع ضوئي لشمس صباح يوم الثلاثاء 23 مايو 1916 وهو جالس على مقعده الحجري في حديقة القصر الأمامية، تحت تعريشة أزهار الفل والياسمين، وبين أشجار

البـان والسرو والكافور الموزعة في مسـاحات الحديقة بنظام هندسي بديع. صلى الفجر في جامع الفاشر الكبير، لم يحادث أحداً من أبنائه أو أمرائه أو مستشاريه أو قادته ممن حضروا معه الصلاة، ولم يشاركوا في المعركة العظيمة التي دارت يوم أمس في معسـكر برنجيَّة. لم يتحدث معهـم ولم يجـرؤ أي منهم عـلى النظـر إلى وجهه أو مبادأتـه بالكلام، انتهت الصلاة وبقوا في أماكنهم جالسـين على السـجاجيد الفارسـية حمراء اللون، يسـبحون ويـرددون أوراد وأذكار الصبـاح. أكمل هو أوراده وأدعيته سريعاً وأشار إلى أحد حراسه أن يتقدمه، تحرك زكريا ابنه واثنان من إخوته فأشـار إليهم بالبقاء في أماكنهم. صعد إلى ظهر فرسه اللَّصدا ومضى وحيداً صوب القصر. ترك الحارس منتصباً أمام البوابة الشرقية، وانسرب ماشياً في ممرات الحديقة العشبية. في جلسته متوحـداً في ذلـك الفجـر أعاد لـه صدح الطيـور وزقزقـة العصافير صـدى طفولـة بعيدة في أوديـة وغابات قرية شـوية، وفي جنان جبل مرة مترامية الجَمَال. استشنق شذا أزهار وورود قصره وهي تتفتح مع ضوء الصباح، تأمل شعاع الشمس وهو يتسلل حثيثاً من بين خضرة تعريشـة العنب والليف واللبلاب وأزهار الجهنمية والفل المتشابكة، ليصـل إليـه في مكانه عـلى القعد الحجـري. لم يكن يحـس بالتعب أو الوهـن رغم أنـه لم ينم ليوم كامل، إحسـاس بالوخـز الخفيف هو ما كان ينتابـه كلما حاول تصور ما حدث «لقد استشـهد الأمير رمضان ود بـرة، وأُصيِـبَ القائد الخليل ود إكرومة، لقد استشـهد – سـيدي

السلطان – نصف الجيش، أطلقوا قنابل المدافع، ورشاشات البنادق، ضربت الطائرة – سيدي السلطان – قتلوا الرجال، قتلوا الفرسان.. ماتوا سيدي السلطان».. جالساً على المقعد، منسجماً مع جموده الحجري، منفصلاً عن المحسوسات متوحداً معه، «أخذت برنجيَّة كل شيء، وقبلها نزف جبل الحلة خيرة الرجال، برنجيَّة تقدمني الآن قرباناً للعدو الكافر، برنجيَّة الآن تؤسس لموت هذا الزمن واندثاره إلى الأبد». لم يحس بوقع الأقدام الخفيف المتقدمة نحوه وهي تطأ العشب الأخضر، لسع حراري متزايد دفعه ليرفع وجهه ويحدق في الأغصان والفروع العالية لأشجار البان والسرو الشامخة «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً»، لم يدر لمَ دارت بخاطره هذه الآية القرآنية وهو يحدِّق في الأغصان البعيدة وهي تهتز مع حركة ريح الصباح، حين أنزل عينيه صوب الأرض وجدها تقف أمامه. جثت على ركبيتها وهي تحييه ثم نهضت.

_ الميرم تاجا.. يبدو أن كل شيء وصل إلى نهايته، السلطنة تموت للمرة الثانية، وأظنها تندثر هذه المرة.

قال ذلك بصوت محايد وكأنه يأتي من البعيد، بينما قالت هي:

_ سيدي السلطان علي ود زكريا، سليل المجد والسلاطين، وحامي حمى دار المسلمين وهَازِم الكفار الملاعين بمشيئة الله تعالى.. سيدي السلطان لم ينته شيء ولم تمت السلطنة ولن تموت وأنت حي

ترزق تدافع عنها وتذود عن حياضها، سيدي وأخي ومولاي وعزي، انتهت معركة واستشهد أبطال ومثواهم الجنة بإذن الله، لكنك يا سلطان البلاد وحاميها ما زلت قوياً، ورجالك الأوفياء الخُلَّص ما زالوا يحيطون بك، انتهى يوم وغداً يوم آخر، وسيشهد فيه الكفار منك ومن رجالك ما لم يشهدوه من قبل.. قم يا أخي واستعد لحربك القادمة، قُم واحسم أمر معركتك الأخيرة، فجيش الكفر على أبواب المدينة، عاصمة السلطنة فاشر أبو زكريا.

لم تدرك الأميرة الميرم تاجا إن كان أخوها السلطان ينظر إلى عينيها وهو يستمع لها أم أنه كان يتجاوزهما بنظراته إلى مدى آخر لا تدرى ما كنهه. لكنها تيقنت من ابتسامته الواثقة – التي تدركها تماماً – ومن قوته المدخرة لمثل هذا اليوم حين قال لها:

_ لا تخافي يا الميرم تاجا، ستكون المواجهة حاسمة وسنعلم جند الشيطان، أي رجال سيواجهون.

جلسا وحيدين متجاورين على المقعد الحجري يحدقان في بعضهما، تحوطهما الخضرة الكثيفة وورود الصباح المتفتحة، وتحفهما أصوات آلاف العصافير المزقزقة في فضاء المكان.

قبل ثلاثة أيام من معركة برنجيَّة الفاصلة أرسل الأمير رمضان وَدبُرة القائد نجابز كداوي لينضم إلى كراديس الجيش الموجودة في جبل الحلة، وزوده بأوامر دقيقة تتعلق بمهاجمة مقدمة جيش العدو الكافر ومحاولة تأخير تقدمه على حدود أم شنقا، قبل أن يصل إلى معسكر مقاتلي السلطنة في الجبل. في صباح ذلك اليوم كان الأمير رمضان ودبرة قد استقبل كشاف النهود جبريل الطاهر في غرفة عمليات الحرب بمعسكر برنجيَّة، فكشف أمامه خط سير تجريدة الإنجليزي منذ خروجها من مركز النهود وإلى أن دخلت قرية أم شنقا، فصل كل شيء بدقة ووضوح وقدم نصائحه مداورة وهو يشير إلى ضرورة تعطيل الحملة وتأخير تقدمها قدر الإمكان، لأن اقترابها في هذه الأيام يعني اجتياح جبل الحلة، الذي سيعني حينها شيئاً واحداً سقوط معسكر برنجيَّة وتعبيد الطريق إلى الفاشر، مركز السلطنة. انسحب جبريل الطاهر كشاف النهود لينضم إلى بقية الرجال المقاتلين في معسكر برنجيَّة بينما انطلق القائد نجابز كداوي في رفقة مجموعة صغيرة من الخيَّالة إلى معسكر جبل الحلة.

في معسكر جبل الحلة، كان أكثر من ثلاثمئة مقاتل وفارس قد أنهوا استعداداتهم النفسية والبدنية وتهيأوا – مفصولين عن الآخرين – لشن أولى الهجمات على جيش الكفار الذي بات قريباً بعد أن أكدت الأخبار عبوره الحلال المجاورة وتقدمه سريعاً نحو الجبل؛

نحوهم. الفارس سيف الدين البرتاوي والضابط المصري الهارب عبد الموجود، كانا على رأس المقاتلين، مهيأين تماماً لخوض المعركة المنتظرة، تفصلهم عنها فقط إشارة أو علامة تأتي من القائد الأعلى ودبرة من معسكره ببرنجيَّة، وحين تحققت الإشارة بمقدم القائد نجابز كداوي ومعه فرسانه القلائل من الخيالة جلس الصديقان معه ووضعوا خطتهم لمباغتة تجريدة الإنجليزي أثناء تحركها الحثيث صوب الجبل.

خرجت القوة من معسكر جبل الحلة فجراً، الضابط عبد الموجود والفارس سيف الدين اختارا أن يكونا ضمن القوة الرَّاكِبة التي ستكمن في الدغل الملتف من حوله وادٍ صغير منحدر من الجبل، القائد نجابز كداوي اختار المبادرة بشن الغارة الأولى، وخطط لها أن تأتي مباشرة وسريعة وصادمة وفوق ذلك مباغتة، تحرك على رأس القوة الأكبر المكونة من الأبالة والفرسان والمشاة الراجلين. كانت الخطة أن تناوش قوة القائد كداوي مقدمة جيش العدو الكافر في طلعات سريعة تنهكه وتشتت انتباهه إلى أن توقعه في فخ دغل الوادي حيث يكمن الضابط المصري والفارس سيف الدين وبقية الفرسان، لكن ما لم يكن متوقعاً للجميع – حتى الضابط المصري – أن مقدمة التجريدة الإنجليزية بمدافعها المكسيم كسرت حافات هذه الخطة بشكل تدميري كامل واخترقت عمقها وجعلت قوة دغل الوادي المدخرة للهجمة المفاجئة تَلِجُ لحظة الذهول المفاجئ

ابتداءً ورجالها يسمعون الدوي المفرقع للدانات ومدفع المكسيم وهي تنزل ضربات سريعة وقاضية على الجسم الأساسي لقوة القائد نجابز كداوي – قُتل في الضربة الأولى – وتُحِيل هذه القوة – مئتي مقاتل أو يزيد – إلى خليط بشري خارج الزمن منتقلاً إلى العدم. حين تتالى دوي المدافع بدأت خيول الفرسان المختبئين داخل الدغل بالصهيل والحركة القلقة، قبل أن تندفع وكأنها في سباق محموم صوب نداء سحري يأتي داوياً من مركز القدر.

في وسط الدغل، كل منهما يحاول شدَّ لجام فرسه ومنعها من الحركة القلقة واللحاق ببقية الخيول التي فرت بفرسانها فزعة ومرتبكة باتجاه الدوي القاتل. كل منهما يحدق في الآخر، والفرسان تدوران في بقعة ضيقة أسفل أشجار الهشاب النَّازّة صمغاً كثيفاً كأنه دموع تتدفق من جسم الشجر. اقترب الدوي منهما، اهتزت الأرض أسفلهما وتزعزعت، أحسا بأن الأشجار بدأت تنفصل عن جذورها وأن الوادي يضيق أكثر على الدغل الصغير. لم تنكسر نظراتهما رغم ازدياد وتيرة الحركة القلقلة للفرسين، أطلق الضابط عبد الموجود ضحكة قصيرة، ثم قهقه بصوت ضاع بين ترددات الدوي المتكرر «المدافع، هذه المدافع» ظل يضحك والفرس تتقدم به وتتراجع وترفع قائمتيها الأماميتين عالياً «مدافع المكسيم، يا سيف الدين، هذه هي المدافع» لم يقل الفارس سيف الدين شيئاً؛ بدا مبتسماً وهو يستمع لصديقه ويشد لجام فرسه أكثر «اسمع، إنهم يقتربون، بووم، اسمع إنها تسقط

قريباً، في الوادي، هنا في الغابة»، سقطت بالفعل دانتان بالقرب منهما واقتلعتا الأشـجار من حولهما بينما انطلقت الفرسـان على غير هدى، حاولا أن يجبراهما على الركض في خطين متوازيين، عبد الموجود يقهقه بصوت ضائع وسيف الدين يعض شفته ويحدق في الدخان المتكاثف أمامهما وهما يتخبطان داخل متاهاته الضبابية، ليخرجا وكل يسـلك اتجاهـاً يقود إلى مكان مغاير لـن يكون فيه أبداً الآخر. وهو يخرج من الغابـة ويفلت من الدانات المتسـاقطة ومن تداعي جذوع الأشـجار الضخمـة، أدرك الفـارس سـيف الدين البرتـاوي أن الحظ وحده ما أنقذه في هذا اليوم، لا سـيما حين وجد نفسـه خـارج الدغل مواجها بالأجساد ممزقة الأشلاء متناثرة في أطراف الوادي وفي التلال الرملية المتباعـدة ومعلقـة على أفرع الأشـجار وفي كل مكان، مكشـوفة أمام فرسه الراكضة مسرعة. قطعت به الفرس في ثوانٍ مساحة كأنها هلال دموي، غطى كل الأجسـاد الميتة وأرجحها قريباً من قاذفات القنابل وبنـادق مقاتلي التجريـدة المتأهبين لقنـص كل شيء متحرك. لكنه لم يمت، شاهد بأم عينيه؛ مع انحناءة الفرس وهي تكمل دورة الهلال، جسـد القائـد نجابز كداوي مغروسـاً في الرمل حتـى ركبتيه، لم يكن ممـدداً عـلى الأرض، ولم يكن مسـتقيماً في وقفته، ولم يكـن حياً، عيناه شـاخصتان ويده اليسرى غائصة في الرمل، كان ميتاً والدماء ترشـح من جسـده. عبر الفارس سـيف الدين البرتاوي – وحيداً – المسـافة ما بين وادي الهشـاب وسـفح الجبل كأنه سهم من شهاب، الطلقات

النارية تناثرت من حوله وتساقطت أمام حوافر الفرس لكنه مضى صوب قمة الجبل صاعداً صخوره العالية بلا توقف إلى أن هبط من الجهة الأخرى وترك الحصان يركض به إلى أن أوصله معسكر برنجيَّة، حيث يتربص به الموت هناك أيضاً، لكنه سينجو. «لم يكن أوان موتك قد حان بعد يا سيف الدين، خذ بت مطرك واهرب إلى الخزان».

في آخر لحظة قبل تحرك الجيش من الفاشر إلى معسكر برنجيَّة، أمر السلطان علي دينار كاتبه عبدالماجد ووزير التجارة بشير نصر الشايقي، وقاضي القضاة إدريس الدنقلاوي، بعدم الخروج رفقة الفرسان والمقاتلين، والبقاء معه في الفاشر. كانوا قد أعدوا أنفسهم للحرب وبدوا في زي القتال وكأنهم قادة قتال حقيقيون. ففي بوابة المدينة الشمالية والسلطان يودع جنوده ويلقي خطبته الأخيرة عليهم موصياً إياهم بالدواس حتى النصر أو الشهادة، طلب من كاتبه ووزير تجارته وقاضي القضاة ومستشاره الأول الملك الدادنجاوي أن يبقوا في أماكنهم لأنهم سيعودون معه إلى القصر:

_ سننتظرهم هناك، وسنحتفل بنصرنا على الكفار سوياً.. ابقوا في المدينة فالجيش بقيادة رمضان وَدبُرة سيقضي على الشياطين الكفرة ويطهر البلاد.

الأمير القائد رمضان وَدبُرة أجرى استعراضاً سريعاً أمام السلطان ومستشاريه، تحركت تشكيلات ضخمة من الفرسان المقاتلين في صفوف نظامية تحت وقع ضربات النحاس السلطاني، مئات من الفرسان الراكبة، ومئات أخرى من حملة البنادق التقليدية، والآلاف من القوات الرَّاجِلة ذات التسليح الأبيض «كانوا يحملون الحراب والسيوف والسفاريك والكَواكِيب، كانوا سيقضون على أي قوة مهما بلغ حجمها لو قُدِّر أن تمت المواجهة رجلاً لرجل بعيداً عن البنادق الحديثة والمدافع التي حصدتهم جملة.. ثمَّ والطائرة.. لم تكن..».

نساء السلطنة كن حاضرات عند أبواب المدينة الشمالية، ظلت زغاريدهن وأغاني الحكامات الحماسية تتصاعد بتنغيماتها المحفزة للمقاتلين دون توقف. الميرم تاجا تقف إلى جوار السلطان، معتلية صهوة جوادها تحدق في الفرسان المحاربين أمامها والفخر يملؤها ويحدثها أن المجد لا محالة متحقق خلال الأيام القادمة «نصركم الله على أعدائه الكفرة، نصركم الله لحماية دينه ونصرة سلطانكم وحامي دياركم» (لن يموت حماسها أبداً حتى والأخبار تنقل لها أن كل هذه الحشود من المقاتلين الأشداء قد تم القضاء عليها، ومن لم يمت فرَّ إلى غير اتجاه.. كانت تثق ثقة عمياء بأخيها سلطان دارفور الأخير).

لثلاثة أيام تحوَّل بلاط القصر السلطاني إلى غرفة عمليات حربية مشتعلة الحركة، لم يذهب السلطان إلى جناحه الخاص أو إلى جناح الحريم خلالها سوى ساعات معدودات، لم يخرج المستشارون

الأربعة ورجال السلطنة الآخرون من المجلس السلطاني إلا إلى الصلاة في الجامع الكبير، والذهاب آخر الليل إلى بيوتهم لتفقدها ثم العودة مع أذان الفجر. كان الكشافون يأتون على مدار اليوم ينقلون تفاصيل التفاصيل عن تحركات العدو الكافر وعن استعدادات الجيش السلطاني في معسكري جبل الحلة وبرنجيَّة، وحين سمع السلطان ومن معه بنبأ القضاء على كراديس جبل الحلة في معركة الغابة والوادي، واستشهاد القائد نجابز كداوي ومن معه، وجم الجميع عدا السلطان الذي بدا أكثر تماسكاً وهو يقول لهم:

_ الخير في ما اختاره الله، وعسى أن تكرهوا شيئاً هو خير لكم، ربما كانت هزيمتنا في جبل الحلة مقدم خير لجيشنا في برنجيَّة، ربما ظن الكفار الملاعين أنهم حققوا النصر وأن من سيلاقونهم في برنجيَّة سينالون ذات المصير. «لكنهم سينالون ذات المصير وأنكى سيدي السلطان علي، سيخترقهم البارود وتفجر الدانات أجسادهم، وستفرقهم الخيول والجمال أيدي سبأ.. ومن يبقى منهم حياً سيفر بعيداً عن الفاشر وينأى.. سيدي السلطان».

في الصباح الباكر من يوم 23 مايو 1916 أعاد الأمير وَدبُرة أمام جنود وفرسان جيش السلطنة المستعد لمقاتلة تجريدة الإنجليزي قسم الحرب المغلظ، إما النصر أو الشهادة في سبيل الله، وحماية أرض السلطنة والدفاع عن حكم سيدي السلطان علي دينار. كانوا أكثر من ألف مقاتل، يقفون على أعتاب الحدود الفاصلة ما بين الموت والحياة، يهتفون مع دوي نحاس السلطان مكبرين ومهللين، الأمير ودبرة، والقائد الخليل، والقائد الأمير منصور عبد الرحمن، والقائد كتونج، والقائد حسن سبيل، يمشون أمامهم معتلين أحصنتهم في أبهى زينتهم العسكرية، تعلو وجوههم رغبة وحيدة: القتال حتى النصر.

انضم إلى كتائب المقاتلين في معسكر برنجيَّة الفارس سيف الدين البرتاوي، لم يعد مشغولاً بمصير صديقه الضابط المصري عبد الموجود؛ لا يعرف إن كان قد نجا مثله، أم أن الدانات مزقت جسده في غابة الهشاب، هو مشغول الآن فقط بالمعركة القادمة، على رأس كردوس من الفرسان الراكبة، يستمع لخطبة الأمير وَدبُرة اللاهبة «النصر أو الشهادة، الموت أو بت المطر». كشاف النهود جبريل الطاهر خلع ثوب الفقير مقرئ القرآن وارتدى ثياب القتال، معتلياً جواده يهز سيفه بيد وبندقيته الصدئة بيد أخرى «النصر أو الشهادة». ضربات النحاس تتردد وحناجر الرجال تهتف بصوت واحد:

«حَبَابُو حبَابُو البِنفَع لِينَا حَبَابُو

يَا البِسير دُخْري مرَحبَابُو

السَّلاَمْ مِن الإِمَام للنبي خَيْر الخِتَامْ

الحَسَنْ جِدُّو النَبِّي والنَبيِّ طَالِبْ الذِّكِر طَالِبْ الذِّكِر

والرسول خَير البرية

فُقَرا شِيلُو الجَلاَلَة لِعِلِي ود زَكَرِيَا

فَاطِمة بِتَّ النِّبي نُور أَبُوكِ زي القَمَر مَا بِنْطَفِي

مَا بنمحِي والشقي مَا بِنْسَعِدْ

الحَسَنْ جِدُّو النبي والنبي طَالْبَ الذِّكر طَالب الذِّكر

سَلِّموا للنبي المُصطَفىَ حَبِيب قَسَانَا

يا حَبيبِنا يَا محمَّد مَا تشفعنَا يوم القِيَامة

خِلّنَا المُصطَفىَ يَا حِبّان القَسا

بِشفعوا لينا يوم الوَفا

فُقَرا عَبِيد الله قُومُوا هِداية الله

اَتركُواالمعصية امسكُوا ذكر الله

بِيشفع لينَا يوم الوَفا»

في ليل الأمس أكملوا حفر الخندق نصف الدائري حول تل برنجيَّة الرملي، طوق المعسكر لحمايته وجر جيش العدو إلى المهلكة. توقع السلطان علي دينار أن تنزلق كتائب الجيش الإنجليزي، لاسيما مقدمته المدفعية في حُفر الخندق بعد أن تتناوشهم بشراسة قوات الخيالة والهجانة بمجرد تقدمهم من أرض المعسكر.

كان الأمير وَدبُرة ومعه القائد سليمان واثقين تماماً من نجاح الخطة ومن تحقيق النصر الأوَّلي وإحكام المفاجأة ومن ثم الإجهاز النهائي على تجريدة الإنجليزي، لكن مع ترددات صدى النحاس الحربي، وتنغيمات جَلاَلاَت السلطان علي دينار، انتبه القادة إلى صرخات الحرب المندفعة بقوة من حناجر الرجال، وحين اكتملت انتباهتهم أبصروا قوة صغيرة من الهجانة تنفلت من مسارها مع الجيش الإنجليزي وتنحرف باتجاههم لتخرج مجموعة فرسان من داخل الخندق ويندفعون صائحين ومكبرين لملاقاتها. لم يكن من مفر. اندلعت الحرب وأبطلت جدوى الخندق وطغى دوي المدافع الرشاشة ومدافع المكسيم على صوت النحاس وهتافات المقاتلين المتحمسين للمعركة «الدواس جَاكُمْ يا فرسان، الموت جاااكم يا فرسان».

حين أبصروا مقدمة كتيبة الهجانة المدفعية أمامهم وهم من وراء الخندق كانت أشعة الشمس قد بدأت تعكس بريقاً على رؤوس رماحهم المشرعة. كبر اثنان أو ثلاثة ثم عبروا إلى الجهة الأخرى، وتبعهم الباقون مكبرين ومهللين. انطلق الرجال، الفرسان،

الخيول، الجِمال، القـادة، كراديس الميمنة، كراديس الميسرة، كراديس الصـدر، انطلقـت الحرب صوب الحـرب، هجم الجيش السـلطاني باسـتماتة وردت المدافـع والبنادق الرشاشـة، في الدقائـق الأولى من بدء الهجمة المباغتة اسـتقبلت رمال برنجيَّة مئات الأجساد المضرجة بالدمـاء، في الدقائـق التي تلتها تقدم مئات آخرون قبل أن يسـقطوا قتلى على بعد ياردات من عسـاكر الجيـش الإنجليزي الكامنين وراء مدافعهـم وإبلهـم المقاتلـة، على بعد يـاردات أخرى، سـقط الأمير رمضـان وَدبُـرة شـهيداً، على بعـد أمتار منه سـقط الخليـل جريحاً.. فرت الفرس الجامحة بالفارس سـيف الدين البرتاوي بعيداً، عميت بالدمـاء عينا جفال خادم السـلطان وقادته قدمـاه تخبطاً إلى حيث لا يدري، سـقط كشـاف النهود جبريل الطاهر مغمـى عليه تحت ثقل جسـد فرسـه القتيـل، صمـت دوي النحـاس واختفـت الجلالات الممجدة للسـلطان والسـلطنة، اختلـط في فضاء سـماء برنجيَّة ذلك الصبـاح دخان البارود بغبـار الهرولة الميتة وفاحـت رائحة الدماء.. بكت رمال وتلال برنجيَّة وخيرانها دماً ذلك الصباح.

بعد استقباله نبأ استشهاد الأمير القائد وَدبُرة وتأكده من هزيمة جيشه في معركة برنجيَّة الفاصلة، دخل السلطان علي دينار وحيداً إلى غرفة مكتبه، لم يكن قد أبدل بعد جبته الحربية ولا أنزل عن صدره نياشين وميداليات حروب نصره السابقة. طلب من الجميع أن يُترك بمفرده، أن يدعوه فقط لساعات منفرداً بذاته. جلس على كرسي خيزران رفيع خصص في الأصل لزواره من المستشارين والأمراء والقادة حين يطلبهم في هذه الغرفة بعيداً عن أجواء البلاط السلطاني الرسمية. أحس بالنهايات تتكون أمامه وهو يتأمل اسمه مشكولاً ومرسوماً ومرقوماً على المنضدة الدائرية التي تتوسط الغرفة «السلطان علي دينار ابن السلطان زكريا ابن السلطان محمد الفضل» مدونة بخط رقعة ونقوش تشكيلية رفيعة وبديعة لطيور وطواويس محفورة على الخشب تتداخل معها وتخلق لوحة جمالية جليلة. مد يده ولامس بكفه سطح المنضدة، مسح برفق على الأسماء (علي) (دينار) (زكريا) (محمد الفضل). أحس بغُصَّة مؤلمة تتجمع في حلقة «انتهت سلطنة دارفور يا علي، وأنت آخر سلاطينها، هزمك الكفار ودنسوا بمدافعهم وقنابل طائراتهم مدينتك الطاهرة.. انتهت الحرب يا آخر السلاطين وتلاشت السلطنة». بقي في مكانه ذلك بين الأثاث الفخيم ودووين شعر مديح المصطفى وكتب الفقه والسيرة نهاره بأكمله. أدرك بحسه النبوئي أن ما انكسر في

معسكري برنجيَّة وجبل الحلة من المستحيل جبره، وإن اجتمعت كل قبائل دارفور في صفه الآن لمواجهة الجيش الغازي. لم يتبق شيء سوى الذكريات العظيمة والمجد التليد لسلطنة حكمت خمسة قرون من الزمان. حين خرج نهاية نهاره ذاك من غرفة المكتب وجد الميرم تاجا والأمير زكريا ابن السطان علي دينار وزوجته السلطانة بنت النور عنقرة، وزوجاته الأخريات، وبقية أبنائه الأمراء وأحفاده، وجدهم جميعاً وقوفاً ينتظرونه في البهو الصغير المنفتح على الغرفة، المتفرع إلى مسلكين متقابلين يقودان إلى غرف القصر الداخلية وإلى البلاط السلطاني وحدائق الورود في الجهة الأخرى. «انتهى كل شيء استعَدّوا للرحيل غرباً صوب جبل مرة، إلى مراقدهم، إلى العظماء حيث مدافن السلاطين».

... والطائـرة تحلّـق في سـماء الفـاشر، كان شـيخ الصاغـة محمد آدم يغلق منذ أسـبوعين أبواب معمل سـك العملة السـلطانية بحي الكرانك، بعد أن سرَّح جميع العمال وسـمح لصائغ الريالات المزيفة القـادم مـن النهود لأول مرة منذ أن حبسـه السـلطان منذ سـنوات بالذهاب إلى حيث شاء فكل شيء انتهى. وحين رمت الطائرة قنابلها عـلى جزء من القصر السـلطاني وهدمت أسـواره كان محمد آدم يغذ السـير في طريقه إلى بيته في حي مكركا. أسـبوعان مرا لم يجلس فيهما مـع زينب بت الفكي، زوجته، سـوى سـاعات سريعات مقتطعات اقتطاعا من الزمن السلطاني المدخر لسك الريالات المجيدية التي تم إعدادها لتمويل جيش السلطنة وهو يستعد لخوض معركته النهائية ضـد جيش الكفـار واتباعهم الملاعـين، «لكن الحـرب الآن انتهت وانهزمنا، وزينب بت الفكي وحيدة هناك تنتظر».

نصف عمامته كان متدلياً على كتفه، وجزء منها يلتف حول فمه بشكل حلزوني مهمل، والجزء الأخير يغطي رأسه في غير عناية، ومن بين ثنياته تظهر طاقيته الحمراء، عيناه حمراوان، وألم كبير يتمطى على وجهه. كان واقفاً على مسافة قصيرة من عرش السلطان علي دينار، الذي كان يقف بجواره ويده اليمنى تقبض على مقبضه العَاجِي، بينما يستند باليسرى على عصاه الأبنوس، مرتديا عباءته الموشاة بالذهب، وتحتها القفطان البيضاء، وعلى رأسه عمامته ذات الجوهرة الفيروزية، وكأنه قد شاخ قليلاً ومن حوله يقف أبناه زكريا وإبراهيم، وبقية إخوتهما وأبنائهم، جميعهم على يساره في أبهى ثيابهم الأميرية، متمنطقين بسيوفهم وبعضهم يستند على بنادق الرمنتجون، أما عن يمنيه فكانت تقف الأميرة الميرم تاجا، بثوبها الأبيض الناصع ومسبحة صغيرة تتحرك حباتها بين أناملها وحيدة في مكانها قدام كرسيها المتراجع قليلاً عن كرسي السلطان، لم تكن تزين جسدها بأي زينة، على وجهها مسحة حزن وبعينيها ذات النظرة الواثقة والحازمة، وعلى مسافة قصيرة من الجهتين كان يقف المستشار الأول محمود الدادنجاوي، وقائد الحرس الخاص علي السنوسي، وبخيت أم درمان حارس أجنحة الحريم، ورئيس الجيش ود إبراهيم، وقاضي القضاة إدريس عبد الله الدنقلاوي، وكبير كتاب السلطان العكام، ووزير التجارة بشير نصر الشايقي.. على تلك الهيئة المأخوذة بالأسى

وقف الشيخ عبدالماجد ود الفكي بعد أن ناداه السلطان وأبلغه بأنه سيرحل، ومعه أبناؤه الأمراء وبعض قادته ومستشاريه صوب جبل مرة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. قال له السلطان:

ـ يا شيخ عبد الماجد، ستبقى في المدينة. لن تصحبني في هذه الرحلة الخطيرة. هنا في الفاشر لن يتعرض لك أحد بسوء فأنت لم تكن سوى كاتب مساعد من كتبة السلطان، أو هذا ما يجب أن تذكره لو سألك أحدهم عن موقعك ومهامك ووظيفتك. الحرب انتهت كما ترى، وهزمنا.. لكن الحرب – كما تعلم – كر وفر، يوم لك وآخر عليك. سنذهب إلى أرض دَالِي، إلى مدافن السلاطين، هناك عند قمة الجبل سنعيد تشكيل الجيش من جديد وسنعيد الكرة.. اطمئن، لن تموت السلطنة ولن يذوي مجد الأجداد أبداً.. ونحن عائدون.

لم يقل الشيخ عبدالماجد شيئاً في ذلك اليوم، أعجزته العبرات عن قول ما يفترض قوله. ظل يحدق في السلطان ومن حوله وكأنما أصيب بالبكم. لم يلتفت نحوه السلطان مرة أخرى بعد أن أنهى حديثه. أدار حواراً هامساً مع ابنه الأمير زكريا وأخته الأميرة الميرم تاجا، ثم دعا قائد الجيش الأول ود إبراهيم لينضم إليهم. في حين ظل بقية الأمراء والمستشارين صامتين يحدقون في أرضية البلاط السلطاني المفروشة بالسجاد الفارسي الفخيم.

خرج كاتب السلطان إلى الممر المفضي إلى حديقة القصر، وعبره

إلى البوابة الجنوبية التي تنفتح على تلة السوق الكبير. مشى في الممر المزدان بورود الياسمين والطيور المغردة تحلق من فوقه. عرف أن هذا الوداع سيكون الأخير، وأدرك أن ورود هذه الحديقة في طريقها إلى الذبول وأن عصافيرها في طريقها إلى الهجرة خارج الديار. كما أدرك أن سلطانه لن يعود مرة أخرى «شيء ما في عينيه انطفأ، لن يعود ولن تقوم للسلطنة قيامة بعد الآن، ويا عبد الماجد خذ فاطمة وأمها وارحل بعيداً». كان يقف أمام البوابة وحيداً يحدق في الشمس وهي تنحدر نحو مغيبها، وصوت حمحمة الخيول ورغاء إبل الرحيل يأتيه متقطعاً من الجانب الآخر. «بعد قليل سيشدون الرحال، وستغلق صفحات هذا الكتاب إلى أبد الدهر.. قم إلى صحائفك يا كاتب السلطان ودون مجد أيامك الذي اندثر».

(7)

برنجيَّة، جبة، الفاشر

«..وتبودلت عدَّة طلقات من قمة تلة لقمة تلة أخرى وبعد صعود التل الثالث تقدمنا نحو هيئة بنيَّة مكتنزة ذات جسد قوي وجليل شوهتها فقط شفاه حسية وقاسية وثقب في وسط الجبهة. لقد كان علي دينار ويرقد بجانبه ابنه محمد الفضل وهو مجروح في قدمه، بينما اثنان آخران من أبنائه هما حسين وسيف الدين ومعهما حسن سبيل حاجب البلاط يقفون برزانة في انتظار ما ستأتي به الأقدار»

هدلستون إلى كلي 6 نوفمبر 1916

بدل الملازم هدلستون، فجأة من الخطط التي وضعها القائد الأعلى كلي. هذا ما حدث بالضبط وما لمسته بنفسي بعد انضمامي إلى كتيبة هدلستون ضمن ثلاثمئة جندي آخرين في معسكر كَاَس، على بعد مسافة قصيرة نسبياً من الديم الذي يحتمي به سلطان الفور علي دينار في قرية كَالُوكُونْق على تخوم جبل مرة، بعد مغادرته الجبل متعللاً بشيوع مرض الحصبة بين أطفال حاشيته والرجال والنساء المرافقين له. لكن ما علمناه – بحسب ادعاء الملازم هدلستون – أنه خرج

مـن مكمنه في جبل مرة أملاً في جمع أكبر عدد من أنصاره اسـتعداداً لمواجهة الجيش الإنجليزي في هجمة أخيرة ناجزة وحاسـمة يسـترد بها عرشـه المغتصب. بالطبع كنت أحد الضباط السـودانيين القلائل المنتمـين إلى كتيبة الهجانة السـودانية الثالثة عـشرة، وكنت على دراية معقولة بتضاريس وجغرافيا هذا الإقليم الشاسـع، لكوني عملت في فترات سـابقة تحت إمرة سلاطين باشا حين كان حاكماً على دارفور، وشـاركت في الحملات العسـكرية ضد المهدية قبل سـقوط الإقليم بأكمله في أيديهم. ربما لهذا السبب قربني هدلستون إليه بعد انضمامنا إلى معسـكره في كاس. قال هدلسـتون، في اجتماع مُصغّر، ضم جميع ضباط الكتيبة، إن كشافتنا من الرعاة وبعض المزارعين، أكدوا له أن زكريا بن السلطان علي دينار ومعه حوالي ألف مقاتل رَاجِل من حملة الحِـرَاب ومئة وعشرين من حملة البنادق يعسـكرون في منطقة قريبة من معسكرنا تدعى تديبس، قال الثعلب العجوز هدلستون:

ـ إذا لم نسـبقه قبل أن يتمكن، سـيقطع هذا الأمير طريق إمدادنا مع الفاشر، وربما يتمكن من عزلنا هنا إن لم نسـارع نحن إلى القضاء عليه.

كان الثعلب العجوز متعجلاً للحرب بشكل مُحيِّر، وكان واثقاً – المدافع والبنادق تُشـكِّل عامل ثقة كبيراً بالنسـبة له – من قدرتنا على إنزال هزيمة سـاحقة بقوات زكريا ابن السـلطان علي دينار، ثم، كما قال:

_ الانتقال سريعاً من مربع الاستعداد والانتظار، ومهاجمة السلطان نفسه في مكمنه، وبهذا نضرب عصفورين بحجر واحد، نقلص الزمن وتكاليف الحملة ونقضي في نفس الوقت على قوة السلطان نهائياً.

في تلك البراري الساحرة ما بين معسكر كاس وديم كَالُوكُونْق حتى بلدة زَالِنْجِي، قرر هدلستون أن نزحف بسرعة قصوى صوب معسكر الأمير زكريا في دبيس. قوتنا لم تكن بالحجم الكبير لكنها من ناحية التسليح كانت تكفي للقضاء على عشرة معسكرات من مثل ذلك المعسكر – المؤقت – الذي كان يعسكر فيه الأمير زكريا مع رجاله ذوي الحراب الألف وفرسانه أصحاب البنادق المئة والعشرين. أحسوا بنا ونحن نقترب، بالأصح لابد أنهم علموا بتحركنا منذ اللحظة التي فارقنا فيها معسكرنا بأرض كاس. لم يكن هناك أحد في المعسكر، وجدنا آثارهم فقط، نيران مشتعلة، قدور طعام مقلوبة، دماء ذبائح، جرار مليئة بالماء، لكن لا أثر لإنسان، بيد أن العجوز هدلستون أصر – رغم هذا _ على إطلاق نيران مدافع المكسيم، فسَاوت مباني المعسكر البائسة بالأرض. ثم وقف وخطب فينا:

_ هذا نصر سريع وغير متوقع، نحن نقترب، حانت اللحظة الفارقة، لقد قضي الأمر أيها السلطان علي دينار.. استعدوا، سنستمر في المضي قدماً.

هكذا تكلم العجوز هدلستون، وهو يدفعنا للانطلاق في براري ووديان دارفور، نطارد سلطاناً كسيراً يلعق جراحه بين أمرائه ومقاتليه. في يوم 5 نوفمبر 1916 كنا نرتقي ببطء طريقاً جبلياً شديد الانحدار، تحفه الأشجار الشوكية من كل اتجاه. جاسوسان كانا قد أتيا إلى المعسكر وأبلغا هدلستون بمكان اختباء السلطان بتحديد دقيق لا يقبل الشكّ. هبطنا من الطريق الجبلي، وعلى ظهور الأحصنة والبغال عبرنا خوراً هواؤه بارد لدرجة الصقيع. قادنا الجاسوسان إلى أن وصلنا إلى متاهة شجرية ماكرة قالا إنها تقود إلى ما يفترض أنه المعسكر الذي يوجد به السلطان، عبرنا متاهة الأشجار بصعوبة إلى أن برزت أمامنا أكمة من الشجيرات الصغيرة، يتصاعد من وسطها خيط دخان أبيض مؤشراً على وجود حياة وسط هذه الغابة المعزولة. حين دوت أولى الطلقات منطلقة بين أفرع الأشجار وجذوعها، انطلقت سريعاً من وراء الأكمة الخضراء فرق متفرقة من جنود ومقاتلي السلطان، إحداها اتجهت صوب تل على مسافة قريبة من موقعنا، وهي التي اختار هدلستون أن نطاردها مستعينا بحدسه الذي أخبره أن السلطان على رأسها، وقد صَدَقَ. كنت أحد الذين شاركوا في المطاردة، لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، تبادلنا النيران مع الرجال القلائل الذين كانوا برفقة السلطان، متنقلين من تلة إلى أخرى، إلى أن شاهدنا الجثة ممددة أمامنا على أرض التل الثالث. كان السلطان علي دينار وقد أصابته رصاصة في جبينه،

كان ميتاً في شـموخ وحوله يقف ابناه حسـين وسـيف الدين ومعهما الحاجب حسـن سـبيل، بينما محمد فضل ابنه الثالث ممداً بجواره بعد أن أصابـت إحـدى الطلقات قدمـه. كانوا ينظرون إلينا في شـجاعة وعـلى وجوههم كبرياء. في هذا اليوم من شـهر نوفمبر سـنة 1916 مات السلطان علي دينار، وانتهت المعركة.

يـا فاطمة، ما هو الحنين، وما تلك الذكـرى والورود، والأحلام التي تهرب ولا تتحقق؟ ألكِ وردة ضائعة وحلم ضلّيل؟ ألكِ قلب مدسـوس عن القلوب وحزن منسـحب لصالـح الآخرين؟ انظري إلى حالك الآن، يا فاطمة، تأملي حال البلاد، أتشـبه حالك؟ شـهور قلائـل انصرمت وكل شيء انتهى معهـا وتضاءل ومضى إلى تلاشٍ. حتـى ضياء الدنيـا الذي كنت تبصرينـه بعيني أبيك عبـد الماجد ود الفكي، بتِّ ترينه خافتاً وواهناً يزرع الألم فيك بدلاً من أن يشـعلك بالحنين والحب والأمل مثلما كان. انتهت الحرب مثلما بدأت سريعاً، يـا فاطمة. ضربت الطائرة القصر السـلطاني، ومـات القائد رمضان وخيرة الفرسـان في أرض برنجيَّة الدامية.. هل مات الفارس سيف الديـن البرتاوي، حبيب بت المطر؟ أم أنه نجا وبفرسـه سـيأتي ذات صبـاح ليأخذهـا ويمضيـا بعيـداً؟ والفـاشر الآن يا فاطمـة، مدينة مـن الأحزان بعد أن جاءتها الأنباء باستشـهاد سـلطانها ورحيله إلى سـماوات الأبـد. الفاشر الآن في يـد الغريـب الكافـر، يديرها كيفما يشـاء ويوجه ناسها مثلما يريد. ادخلي برفق يا فاطمة إلى خلوته، فهو لـن يعود إلا بعد أن يؤدي صلاة العشـاء في زاويـة التجانية مثل كل يوم منذ خرج السـلطان وتركه أميناً على أسرار قلبه الحزين وذاكرته المتوجعـة. ادخلي يـا فاطمة، واخلعي عنك أثـواب قلقك وهمومك عند باب الخلوة القصير. أمك، نفيسـة بت الريف، مشغولة بالحياة،

عـادت إلى همومهـا اليوميـة، تجري هنا وهناك مع نسـاء ونسـاء، ثم تمـضي بقية نهاراتها تعدُّ لكما شـهي الطعام، هو لـن يعود الآن، وهي مشـغولة بالحياة؛ فادخلي إلى خلوته وأريحي ذاتك القلقة بين ألواحه وأحبـاره إلى أن يعـود إليهـا وإليـك. يـا فاطمـة، هل أحببت سـيرة السـلطان عـلي دينار، وأنت تخطـين فصولها المُملاَة عن أبيك سـطراً سـطراً؟ أوعلمـك ودالفكي الكتابـة والقراءة لتخطين فقط سـيرته مع السـلطان أو سـيرته عن السـلطان؟ تدونين المجد كما شـهده هو وأبصرته عيناه.. السـلطان، منسـكباً بحبر الحب والتبجيل، أم أنكما سـجلتما كل شيء بحيـاد الحياد؟ اجلسي على فـروة الجَامُوس؛ هدية السـلطان إليـه كما أخـبرك وأنت طفلـة تتقلبين على فروهـا الناعم. تنـاولي الأوراق والدفـتر الكبـير واقـرأي الزمن، حـاولي أن تقبضي عليـه، أن تحيي فيه وأن تتشربي به، وأن تسـتعيدي عبره ما فاتك من حمـاس ومغامـرة ومقامـرة؛ قلبـي الأوراق يا فاطمـة، صحائف ود الفكي الخاصة عن آخر سلاطين الفور علي دينار:

«وكان للسـلطان عـلي بـن زكريـا بـن محمد بـن الفضل، مجلسـه الشـعري الخصوصي، الذي يحضره أهل الأدب والعلماء، وإليه يأتي الشـعراء ومادحو النبـي عليه أفضل الصلاة وأتم التسـليم من كافة أصقـاع البـلاد، فمنهـم من يأتي مـن أم درمان، والخرطـوم عاصمة الإنجليـز، ومنهم من يأتي من غرب البلاد جهة كانو وكانم، ومنهم من يـأتي من بلاد السنوسـية وبلاد الفزان، وهنـاك المصريون وأهل

الحجـاز، جميعهم كانوا يأتون في مواسـم متباعـدة وفي مرات يجتمع أكثـر مـن واحد منهم في الديوان السـلطاني، والسـلطان نفسـه كان يقرض الشـعر، ويكتـب المدائح النبوية وله فيها ديوان شـعر، وكان حافظـاً للأجروميـة ومليًا بالعروض وأوزان الشـعر، وأكثر من مرة أملاني أشعاره الصُّوفيّة التي تأخذ الألباب. في هذا المجلس بالذات جـودت لغتـي العربيـة وأتقنتها وانتقلـت من مجرد كاتـب في مخازن التجار إلى كاتب يقترب في لغته من لغة الأدب وعلومها».

أيـن ديـوان المدائـح النبويـة التـي نظمها السـلطان عـلي دينار يا فاطمة؟ هل يحتفظ ود الفكي بنسـخة منها؟ أم أخذها معه السلطان إلى حيث ذهب ولن يعود؟ وأنت أما زلت تحلمين بالفارس القارئ الشاعر الشـجاع، يأتيك معتلياً جواده ويأخذك إلى حيث لا مكان؟ هـل أحببت السـلطان يا فاطمة؟ هـل صورته كانـت تطابق صورة فارسـك المحلـوم، أم أنـك تنسـجين على صـورة ود الفكي فارسـاً يمسك بيمناه قلماً وبيسراه سيفاً؟ عطشى أنت الآن، تجرعي الماء من هذه القلَّة السـلطانية، كما يفاخر بهـا أبوك ود الفكي ويحفظها محاذراً أن يمسـها أذى «القلة هدية من سيدي السلطان علي دينار، منقوشة بالآيات القرآنيـة ومعجون فخارها بماء زمزم المبـارك، أهداني إياها هي والجبة الزرقاء والقفطان الأبيض يا فاطمة». الجبة الزرقاء معلقة في مكانهـا داخـل الـدولاب، لا ترتديهـا يـا ود الفكي إلا في شـديد المناسـبات «الجبة والقفطان مباركان يا فاطمـة، جيء بهما من أرض

الحجـاز، وخصنـي بهما سـيدي السـلطان». تجرعي ماء قلـة الفخار الزمزمية بآياتها المنقوشـة وادع للسلطان الشهيد يا فاطمة أن يسكنه الله فسـيح الجنات مع الأنبياء والشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقاً. اجلسي على العنقريب يا فاطمة وانتظري فارسـك ود الفكي كاتب السـلطان المحزون، عسـى أن تكون لديه رغبة في التدوين أو القراءة.

أنامت زينب بت الفكي صغيرها عبد الماجد، ثم حملت بين يديها عجينة الدلكة وجلست في الفراش قرب زوجها محمد آدم، فمنذ عودته من مصنع سك العملة تمدد شاكياً من الآلام المبرحة التي تتوزع بجسده وتتركز في ظهره وساعديه. خلعت عنه بت الفكي عراقي الدمورية الخفيف، وبدأت في دلك جسده العاري بعجينة الدلكة المكورة بعد أن قطرت عليها القليل من الخمرة، مسدت جسده شبراً شبراً، مبتدئة من أصابع قدميه حتى عضلات عنقه القوية، ظل مستسلماً لأناملها وهي تمرِّر برفق الكُرات العطرة على جسده وتضغطها خفيفاً لتترسب بين المسَام وتغزو روحه وتنعشها، بين الخدر واللذة كان يحس بالآلام تغادر جسده متسربة وتحلّ فيه الرغبة متوهجة تدعوه إلى زينبه والإبحار في جسدها الرقيق دافناً فيه أحزانه وأشجانه. «كنت مستعداً يا زينب أن أبقى منحنياً على ماكينات سك الريالات المجيدية إلى الأبد، شرط أن ينتصر سيدي ومولاي السلطان علي دينار». قال لها ذلك وهو يضمها أكثر إليه تاركاً رأسه على صدرها. «لم ينكسر شيء.. ما انكسرت البلد، ولن تنكسر، وروح سيدي السلطان تحرسها حتى وهو غائب». قالت له وهي تمسح بكفها شعره الخشن وتطبع قبلة على جبينه. «أرغمني على عدم المشاركة في الحرب، أبعدني عن الموت وأبقاني سالماً في مصنع الريالات.. كم أنا حزين يا زينب على الرجال، الفرسان

الذيـن رحلوا دون عودة». قال لها وهـو يغمض عينيه على صدرها. «إنهم الشـهداء يا محمد، روح البلاد ونداؤها الذي لن يسكت أبداً» ضمهـا إلى صـدره، ضمتـه إليهـا. «كم أحبـك يا زينب» قـال. «كم أحبك يا صائغ روحي ومشكلها». قالت له.

وقلت لفكي إساغة:

_ يـا فكي إسـاغة، لقـد طابت جراح جسـدي بفضـل طبيبك، وجميـل رعايتـك لي أنت وأسرتك طوال الأشـهر الخمسـة الماضية، فيـا لنبـل فضلـك.. أنا الآن في أحسـن حـال والحمد لله، لا أشـكو شـيئاً سوى جراح الروح، ولا أظنها سـتبرأ، لكنك لو أجبت طلبي يمكننـي احتمال ما تبقى من عمر بمؤازرة روح من روحك الطيبة.. يا فكي إساغة زوجني مريم ابنتك ودعني أعود إلى فاشر السلطان.

وكان الفكي إسـاغة يبتسـم طيباً في وجهي وأنـا أقول كل ذلك، يُمسِّـدُ بأنامله المباركـة لحيته القصيرة المدببة وعيناه تشـعَّان بالمحبة. أنقذني هذا الشيخ من مقتلة برنجيَّة الدامية، وجدني كما حدثني قريباً من شـجرة سدر يابسـة الأوراق – كنت أراها مورقة حينها – غائباً عـن الوعي ومتاخماً للموت، «نزف جسـدك كل دمـك، لو تأخرت دقائق لكنت مت»، قال لي وحدثني أنه شـاهد من على تلال برنجيَّة العالية كل فصول المعركة السريعة غير المتكافئة «أخطأ جندي ما من جند الكفار وتقدم نحو الخندق، أخطأ فارس ما من جيش السلطان وخرج من الخندق» قال لي، وأخبرني أن دوي المدافع لشـدته أسقطه مـن أعلى التل وقذف به بعيداً عن مسـار المعركـة، دقائق وانتهى كل شيء. «صعـدت التـل مرة أخرى وأبصرت جيـش الإنجليز الكفار

وهـم يتقدمون في طريقهم إلى الفاشر، أزاحـوا الجثث من طريقهم، دفنـوا بعضها وتركـوا البعض الآخر مكشـوفاً في العـراء»، قال لي، وأكـد أنه تفحص لسـاعات الجثـث المتبقيـة جثة جثة علـه يجد بقية روح عنـد أحدهم، لكنهم جميعـاً كانوا ميتين «كانوا رجالاً، صمدوا أمام النار، ولم يتزحزحوا شـبراً، والأمير رمضان وَدبُرة كان أكثرهم إقداماً، أبصرتهم يأخذون جثته ويدفنونها أسفل أحد التلال بعيداً». قـال لي، وحدثنـي أنه مـضى في الرمل متخبطـاً حزيناً صـوب بلدته القريبـة من معسـكر برنجيَّة، وفي الطريق أبـصرني مرمياً تحت وهج الشـمس على بعد أمتار من شجرة السدر اليابسة – كنت أظنني على أبـواب فـاشر السـلطان – «اقتربت منك يائسـاً، وتيقنت من موتك حين أبصرت كمية الدماء التي ترشـح من جسـدك، والمسفوكة على طـول طريـق انجـرارك وزحفك عـلى الرمـل، لكني حـين اقتربت منك شـككت في هذا الموت، تلمسـتك، وبحثت بأصابعي هذه عن ضربـات نبضـك الخفيضة حتى قبضـت عليها.. حملتـك على كتفي وأسرعت بك صوب الحلة». قال لي، وأخبرني أن أربعين يوماً وليلة قمرية اسـتغرقها جسدي ليشفى من جراحه وندوبه الغائرة، أربعين يومـاً قمريـة بلياليها، مـا توقفت يوماً خلالهـا عن الهذيـان والمناداة باسـم سـيدي السـلطان علي دينار، حتى أشـفق علي أن تقتلني هذه الهذيانـات الواجبة لا جراح الحرب.. وأول صوت سـمعته في فجر أول يوم لاسـتعادتي وعيي كان صوته، كان يجلس أسفل فراشي على

فروة صلاته، يسبح ويدعو الله، سمعته يردد بصوت خفيض جداً الأدعية والأوراد، لكنه وصلني صافياً وآسراً وكأنه صُبَّ مباشرة في قلبي «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ربّ أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شرِّ ما فيه وشرِّ ما بعده، اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشُور». لم أعرف أين أنا وفي أي مكان أوجد، وصوت من هذا الصوت المبارك، لكنني أحسست بالسكينة تتسرب إلى نفسي، ظللت بمكاني ساكناً وأنا أتابعه وهو يتلو بقية أوراد الصباح «سيّدنا محمّد رسول الله عليه سلام الله. إِنَّ اللهَ وَمَلائكته يُصَلّونَ عَلى النَّبيِّ يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا صَلّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً. سُبْحَانَ ربّكَ ربِّ العِزّةِ عمَّا يَصِفُونَ وَسَلام عَلى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِينَ". قال لي إنه أحس بي وقد بدأت أصحو من غيبوبتي، لَكنه أراد إكمال كل أوراده وأن يتقدم بكامل شكره إلى الله عز وجل على نعمة شفائي. أفهمني في الأيام التالية لاستيقاظي وعلى مراحل بما جرى، فتذكرت رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً مقتلة برنجيَّة الدامية وابتأست، واعتصرني الألم وأغرقتني الأحزان حين فهمت أن فاشر السلطان صارت الآن بين أيدي الكفار الملاعين وأن سيدي السلطان علي دينار خرج منها باتجاه مدَافِن الأجداد في جبل مرة، ليعد نفسه من جديد ويعيد الكَرة، لكنه لم يصارحني

بتفاصيل ما جرى بعد ذلك بثلاثة أشهر إلا بعد أن تأكد تماماً من شفائي "استشهد السلطان علي دينار يا جفال وهو يدافع عن أرضه ودينه، وروحه الآن بين يدي مليك مقتدر، فاستغفر ربك واعمل لآخرتك بما يرضي الله أولاً، وبما كنت تراه ثانياً يرضي السلطان في طاعة الله علا وجلّ". حين تحسَّنتُ أكثر بدأت أتعرف على المكان. حلة فكي إساغة الصغيرة المعزولة التي لم أسمع بها من قبل، لأجدني فيها الآن وأُولد بها من جديد. خمسون بيتاً أو أكثر قليلاً مبنية جميعها من القش، متسعة الأحواش ومسورة بالصريف والشراقن، بيت الفكي إساغة يقع في طرفها القصي، يسكنه مع ابنته مريم وحيدين، مكون من قطيتين كبيرتين، واحدة لكل منهما، المطبخ دُرْدُر[1] طيني صغير تستخدمه مريم وتجلس فيه أغلب وقتها، الحوش متسع ويعطي إحساساً بالبراح الكبير، وأخيراً مسيد الفكي إساغة المشيد من راكوبة قش كبيرة مفروشة أرضيتها بالبروش والحصير، يُعلِّم فيها عند كل صباح صبية الحلة آيات القرآن وسيرة النبي الكريم، ويعالج تحت ظلها بالمِحَايَة والبخرات المرضى والمأزومين من أبناء الحلة والحلال والقرى المجاورة. في هذا المسيد، في أيامي الأخيرة التقيت كشاف النهود فكي جبريل الطاهر وحكي لي كل شيء عن رحلة السلطان الأخيرة صوب مدافن السلاطن.

في الأيام الأولى بعد استعادتي لوعيي، انتبهت إلى أن الفكي

1- كوخ من الطين، اسفله مستدير.

إساغة يقسم مهمة تمريضي ومتابعة حالتي الصحية والجسدية إلى نوبتين، الوردية الليلية تكون بإشرافه ورعايته الشخصية وتبدأ عقب صلاة العشاء وتمتد إلى ما بعد صلاة الفجر والساعات الأولى من الصباح، أما النوبة الأولى، فتكون بدايتها من ساعات الصباح الأولى وتمتد حتى صلاة العشاء، وترعاني فيها ابنته مريم، البنت الصموتة مَزمُومَة الفم، ذات الجدائل النحيلة، والغناء الخفيض وهي تنسج ملافحها البيضاء وطواقيها الحمراء التي لا تنتهي خيوطها. لم تكن تتحدث معي كثيراً، لكنها كانت تهب من بنبرها سريعاً في حال أحست بأدنى حركة مني «جفال دَايِر شي»، كانت تتحدث بلهجة بقَّارِيّة تختلف عن لهجة أبيها فكي إساغة الفوراوية. في حضورها لم أكن أطلب الكثير، لكنها كانت تحس بي وبرغباتي وحاجاتي التي أخجل أن أطلبها منها.. تتقدم مني، تنحني عليَّ فأشم عطرها العجيب، خليط من رائحة شجر الشَّاف وشذى ورود «قدوم نبي» ورائحة السمن البلدي، تعدلني في رقدتي من اليمين إلى اليسار أو العكس «جفال الله مرَقك من قتلة الخواجات»، تقول لي بينما أحاول أنا قتل ألمي وتوجعي حتى لا أخرج ولو آهة أمامها. تجلس على بنبرها قدامي بالساعات تغزل صوف طواقيها الحمراء وملافحها الجميلة، تنهض فقط لتحضر وجبة الفطور أو الغداء، أو شراب الكونجومورو المُدرّ للدم، كما قال فكي إساغة. قلت لها مرة «مريم أنت سَمْحَة، سَمْحَة شديد»، كنت بدأت أتحرك وأعتمد على

نفسي في المشي وقتها. حدقت في وجهي طويلاً قبل أن تقول «سمح روحك يا جفال». مع مريم ابنة فكي إساغة لأول مرة أنتبه للمرأة، الأنثى. طوال عملي في القصر مع سيدي السلطان علي دينار، لم تلفتني امرأة، لم يشغلني طيف أنثى، مئات النساء مررن من أمامي، داخل القصر، خلال الحروب والغزوات، في أزقة أم درمان، وفي كل الأماكن التي زرتها برفقة سيدي، لكن مريم فقط الآن تنبهني إلى وجود كائن اسمه أنثى.. بسمرة لونها الناعمة، وبصوتها الحلو وهي تدندن:

«قال البَادرَة كَانْ مَشيتْ

سَلِّم عَلَى السّمرِي

سَلِّم عَلَى زوْلِي

سَلِّم عَلَى بَناتْ دَورِي

وعَلَى الرهد البِقَرُمْ سِتيبْ

كَان جَرِينا عِيبْ

كَانْ قِتِلنَا زينْ

فوُقْ البلَدْ

معَرّص الكْوشَيبْ»

فكي إساغة ومريم ابنته أخرجاني برفق وحنان من نفق الحزن الذي ولجته بعد معرفتي بمصير سيدي ومولاي السلطان علي دينار، فكي إساغة ببثه روح الدين والتسليم القرآني بمصائر البشر إلى روحي وزرع الإيمان من جديد في هذه الروح القلقلة الأسيانة (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)، (وَلاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه). يتلو آيات القرآن الكريم على رأسي صباح مساء، ويقول «يا جفال، الحزن يأكل الرجال، وأنت شاب أمامك الطريق، وحفظ سيرة السلطان وعظماء الأبطال ممن استشهدوا معه، فيا ولدي شد حيلك وارم الحزن وراءك وشمِّر لدنيتك بالهمة والنشاط واستعد لآخرتك بالعمل الحسن». مريم السمحة، أنقذتني وداوتني بعفويتها وطيبتها ومحبتها التي تسع الكون «كنت تحبه هكذا يا جفال، يا حليلك يا ولد أمي»، تقول لي وأنا أحاول إخفاء حزني ووجعي منها وهي تجالسني ساعات العصر في أعلى الكثبان الرملية على أطراف الحلة نتأمل الصبية الرعاة وهم يعودون بالأغنام من المراعي القريبة. وحين جاء كشاف النهود جبريل الطاهر إلى المسيد عابراً وعرفته وعرفني كنت قد طلبت مريم زوجة لي بشكل رسمي من أبيها الفكي ووكلت الكشاف ليكون وكيلي في عرسها.. وأصررت أن آخذها ونمضي إلى الفاشر، فاشر السلطان،

حيث سكني ومعاشي وإن غاب سيدي ومولاي علي دينار.

بعد أسبوعين من عرس صغير حضره سكان الحلة القلائل وفرحوا وابتهجوا به، أخذت مريم، عروسي وزوجتي وتوجهنا نحو الفاشر، وما كانت تبعد كثيراً من مكاننا ذاك، الفكي إساغة وهبني حمارين أحدهما ريفاوي أبيض اللون والآخر دَارَوِّي أحمره، وثماني نعجات وبقرة وبخستين مليئتين بمحاية القرآن الحافظة. مريم أخذت معها خيوط طواقيها الحمراء ومنسج ملافحها البيضاء الجميلة، وبعض آنية قليلة، وبخسة سمن بلدي متوسطة الحجم وأخرى مليئة بالبِركِيبْ والكثير من السمسم المسحون وكسرة الدامسرو، كان هذا كل زادنا، توكلنا على الله وانطلقنا في سفرنا قبل انبثاق الشمس بما يكفي لتكوين ظل صغير.

أركبت عروسي السمحة مريم، أحد الحمارين، وقطعت أغلب المسافة ماشياً، أعاين في الطريق الرملي المتفرع من برنجيَّة قبل اتصاله بحلة الفكي إساغة، أفتش بعيني التعبتين عن شجرة السدر اليابسة، شجرتي المنقذة من مقتلة معركة المدافع الساحلة. كنت أحفظ هذه الدروب جيداً بكثبانها وتلالها، فكم من مرة خرجنا فيها غزاة، وكم من مرة أخذنا سيدي السلطان معه في رحلات صيد وترفيه في تلالها وكثبانها الرملية، وكم من مرة تفقدنا فيها معسكرات الجيش هنا وفي جبل الحلة وقريباً من جبال مليط. مريم ظلت صامتة طوال الرحلة، ليس على وجهها أثر حزن لفراق أبيها الفكي إساغة ولا

آثـار فرح بعرسـها ورحيلها، لكنـي كنت أحسـها بي ممتلئة ومكتفية ومحبة. وكنت أمامها أمضي على قدمي ممسكاً بلجام الحمار الريفاوي.

حين دخلنا فاشر السـلطان سـيدي ومولاي الشـهيد علي دينار، كانت الشـمس توشك أن تلج مغيبها، شـققنا دروب وطرق المدينة مـن شرقهـا إلى غربهـا، كنـت أتأمل بيـوت القش والطـين، وبعض الوجوه المارة وأدرك أن المدينة لم تعد تلك المدينة، وحين اقتربنا تماماً مـن الرهـد وبان لنا عند الأفق قصر السـلطان تأكدت من أن ظنوني في مكانهـا. كانت بعض أسـوار القـصر مهدمة وجزء من سـقفه قد تداعـى، تلك كانـت قنابل الطائرة التي حدثنا عنها كشـاف النهود. قلت لمريم:

ـ مرحبـا في دارك الجديـدة، بلـدي وبلد سـيدي السـلطان علي دينار، الفاشر أبو زكريا.

عـاد الحـاج عبد الماجـد ود الفكـي إلى البيت بعـد أن أدى صلاة العشـاء في زاويـة التجانيـة بحـي القبـة، وبعـد أن انتهى مـن تلاوة الأوراد اليوميـة بشـكل جماعـي. كان يحـسُّ بطاقة كبـيرة ومتجددة تسري في جسـده هذا اليوم منذ أن استيقظ فجراً وتلا أدعية الصباح وهو يحس بالسكينة تتنزل لأول مرة في قلبه منذ رحيل السلطان من المدينـة، واستشـهاده على تخوم مدافن السـلاطين في جبـل مرة. دعا الله أن يغفر له وأن يسـكنه الجنة مع الأنبياء والشـهداء والصديقين، وأن يجزيه بقدر ما قدم لشـعبه وأرضه ودينه الإسـلام. وجد زوجته نفيسـة بت الريف أعدت له عشـاء خفيفاً من حسـاء الحمام واللبن، لكنـه لم يكن جائعـاً، كان يحس برغبة أخرى تخلقهـا وتغذيها الطاقة الهائلـة المتكونة بداخله، نادى على ابنتـه فاطمة، وقبل أن تجيبه أدرك بحدسـه أين يجدهـا. دخـل عليها في خلوتـه ووجدها جالسـة على فـروة الجامـوس تقلب في أوراق كتابه في سـيرة السـلطان (الأخبار المحكية في سيرة سلطان دارفور الزكية علي بن زكريا.. رضي الله عنه وأرضاه). «السـلام عليكـم ورحمه الله تعالى، يا فاطمة السـمحة، يا زينة البنات وأجملهن، يا بت أبوها النيرة» قال لها وأجابته: «وعليكم السـلام ورحمـة الله وبركاته، أبـوي الحاج عبدالماجـد الكاتب، فخر الرجال وزينة الآباء، مرحب بيك وحبابك». جلس بقربها على فروة الجاموس، ضمها إلى صدره وقبل رأسها، أمسك الأوراق من يديها

وقلبها بين يديه، ثم أعادها إليها، تراجع قليلاً إلى الوراء وألصق ظهره بحائط الطين، قال لها: «اقري يا فاطمة، اقري من البداية، اقري يا فاطمة». وقرأت فاطمة:

«وكان مولد السلطان علي بن محمد بن الفضل، الملقب بعلي دينار، في العام 1869 ميلادية الموافق 1285 هجرية، في قرية شوية القريبة من مَلوم في الجنوب الغربي لمدينة نيالا.. وكان جده هو سلطان دارفور العظيم محمد الفضل، أبوه كان أصغر أبناء السلطان محمد الفضل وكان رجل دين متفقهاً ومتديناً، لذا علم ابنه السلطان علي دينار أصول الدين وفقهه فيه منذ صغره، فكان عالماً عارفاً بالدِّين، ورافق سيدي السلطان علي دينار ابن عمه السلطان أبو الخيرات قبل أن....».